

آثار المغرب

حياة الوزان الفاسي وآثاره

تأليف

محمد المهدي الحجوي

احد اعضاء المحكمة العليا

قدم هذا البحث لمؤتمر المستشرقين الثامن
الذي أقامه معهد المباحث العليا الغربي بفاس
وتلى ملخصه في جمعه العمومي المنعقد
يوم ٢٠ غشت سنة ١٩٣٣

ويحتوي على نبذة من جغرافية المغرب
وتاريخه فى القرن العاشر

المطبعة الاقتصادية * لصاحبها مصطفى بن عبد الله * بالرباط

١٣٥٤ ـ ١٩٣٥



بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه

تصدير

عرضتْ علي لجنة مؤتمر معهد المباحث العليا الثامن الذي انعقد بفاس سنة ١٩٣٣ أن أشاركها ببعض ابحاث في مؤتمرها هذا الذي جعلته خاصا بفاس ، فلبيت طلبها وجعلت موضوع بحثي شخصية لم تزل مجهولة في اوساطنا ، شخصية احد اقطاب العلم الجديرين بالالتفات ، ذلك هو ابو علي الحسن الوزان الفاسي المعروف عند الافرنج باسم « ليون الافريقي Léon l'Africain »

لم أر بحثا اليق من هذا اقدمه لهذا المؤتمر الحفيل ، اذ شخصية الرجل عظيمة لها تاثير مكين على فن الجغرافية والتاريخ وعلى بقية الفنون التي أسداها العرب للافرنج ، وله موقف خاص ازاء قيام النهضة الاروبية الكبرى التي يعيش العالم تحت ظلها اليوم ، وهو

بين العرب بالنسبة للجغرافية كابن خلدون بالنسبة للتاريخ ، وعلاوة على ذلك فهو ممن انبتتهم حاضرة فاس التي حصر المؤتمر دائرة ابحاثه حول شئونها ، وقد تعهدت بالبحث في حياته استخراجا واستنتاجا على الاخص من كتابه وصف افريقيا كما تعهدت بتحليل كتابه هذا تحليلا فنيا بقدر ما سنح لجاء ذلك كما سترى ان شاء الله .

وبعد ما قدمته للمؤتمر وحاضرت بملخصه في جلسته العمومية فاني اقدمه اليوم لكل معتن بتاريخ الرجال ورجال التاريخ على طريق الطبع لتعم فائدته ورجاءي ان يتقبله العموم قبولا حسناً .

محمد المهدي الحجوي



تقـــديم الكتاب

بقلم الاستاذ المؤرخ الكبير مولاي عبد الرحمن بن زيدان
نقيب العائلـــة المالـــكة

الحمد لله حق حمده ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده ، وآله وصحبه واهل وده .

يعج التاريخ وتفيض صفحاته في كل عصر بشتى المواقف والاحوال ومختلف الاقتضاآت والمناسبات التي لا ينشد قلم المؤرخ أجدر منها لتدوينه وحفظه وإبقاء أثره خالداً ما بقي للتاريخ شأنه الفذ العظيم وما دام الفن الاستقرائي الابدي الذي تستمد الانسانية منه هديها وأوضاعها .

وأن بين هذه المواقف والظروف وخلال هذه الاطوار المتنوعة ليقف الباحث المجد منقبضا خجلا اذ لا تسعفه احيانا مواده التي يجد واصوله التي يكشف لان يكون له في بعض الاحيان او أكثرها فكرة يجرأ على تقديمها كبحث مستكمل لبعض فروع التاريخ او حياة افراد تعلق بوجودهم كله لقب من أعظم القابه فامسوا التاريخ نفسه نستمده من حياتهم كما لو كانوا المملين .

بين يدي الآن صفحة بيضاء من اجمل صفحات تاريخ المغرب الخالد اقدمها يمنى التقدير والاعجاب لابناء العروبة ومن يمت الى العلم والادب بصلة تملي علينا من طيب احاديث سلفنا الاولين وتنشر لنا ما طواه كر الدهور وتعاقب الملوان من اخبارهم وما خلفوه من جم المفاخر ، وتسفر لنا عن حياة شخصية من أعظم الشخصيات التي انجب المغرب وحلى بها جيد تاريخ ابطاله الاعلام ونبغائه العاملين ، كانت شذراتها في بطون الدفاتر موءودة لا يكاد المؤرخ المغربي يعرف عنها شيئا في تاريخ سلفه المجيد ، الا وهي صفحة من صفحات حياة الجغرافي الكبير ، الرحالة الخطير ، ذي الاطلاع الواسع ، والعلم الصحيح ، والذهن الوقاد ، والقلم السيال ، والوصف الكاشف ، ابو علي الحسن ابن محمد الوزان الغرناطي النشأة ، الفاسي الهجرة ، وكم عظماء امثاله يحق للشرق أن يفاخر بهم الغرب طويت سجلات آثارهم الاثيرة ، وذهبت اخبارهم ضحية الاهمال... ومن منا يجهل ما امتازت به الامة المغربية من حضارة ورقي رضعتهما من ثدي العروبة زمن نضارتها وزهرة ثقافة مدنيتها . منها استمد الغربي ما أصبح متربعا به على دست المعارف واستطاع أن يرفع به رأسه بين الامم وبالاخص من الجهة العلمية .

ناهيك أن جامع القرويين صانه الله كان ولم يزل كعبة مطاف

رواد العلم وعشاق الثقافة العربية ، ومحل الاعظام والاكبار عند نقاد المؤرخين ومنصفيهم المتصفين بحرية الافكار ، المتحلين بنبذ دنس التعصب بالعراء ، حتى وصفه احد علماء التاريخ بروسيا ، وقد أنصف ، بانه اقدم كلية عالمية اسست في افريقيا بفاس عاصمة بلاد المغرب سابقا لا باوربا كما كان يظن لتحقق ذلك بالشواهد التاريخية ، وأنها الكلية الواحدة التي كان الطلبة يتواردون عليها من أنحاء اوربا وانكلترا للانخراط في سلك طلابها وتلقي العلوم السامية باللغة العربية مع الطلبة الطرابلسيين والمصريين والاندلسيين وغيرهم حينما لم يكن سكان باريس واكسفورد ، وباردوا ، وبولونيا ، يعرفون من الكليات الا الاسم .

فجامعة علمية نقرأ صفتها مدققة كهذه عند مؤرخ اجنبي ، جديرة بان يوجد بين اعلامها المتخرجين منها امثال من هو موضوع حديثنا ، والجامع القروي زاه زاهر بأيمته ، يباهي الغرب باعلامه ، ويرهبه بليوث غابه وكماة حماته ، ولقد عرف الغربي لاستاذه الشرقي أنه عنوان الذكاء ورمز التقديس .

وفي اخبار الرحالين في القرن السابع والذي بعده والمجد الذي أشادوه للمغرب والمغاربة غنية ومقنع ، كابني الامام ابي زيد وابي موسى ومن جاء بعدهما كالقاضي ابي عبد الله المقري والمرازقة وغيرهم وهو كثير في

كل عصر لا نزيد الاطالة بسرده ، ومن طالع تاريخ ذلك العصر وبالاخص الدرر الكامنة والبدر الطالع لصيرورة الكتابين متداولين حتى لدا صغار الطلبة يقضي العجب من الغاية التي كانت تسموا اليها المغاربة . فانك لا تكاد تقرأ الكراس الواحد من غير أن تقرأ ترجمة نابغة من نبغاء المغرب ملأ البلاد علما .

ورغبة في أن يزيد القارئ ايمانا بالنبوغ المغربي نسوق كلمة جاءت في البدر الطالع للحافظ الشوكاني في ترجمة الامام ابي الفضل المشدالي بعد أن أشار الى ذكر بعض العلوم التي تفرد بالمهارة فيها كالنحو والصرف والعروض والمنطق والاصول والميقات والحساب والمعاني والبيان والتفسير والحديث والفقه والجبر والمقابلة والهيئة والاوفاق والطب والاسطرلاب والموسيقى وغير ذلك مع حفظه للكثير من المتون المختصرة والمطولة ، قال الشوكاني : لما وصل الى القاهرة كان ذكره قد ملأ الاسماع والبقاع فازداد حظوة عند السلطان واركان الدولة ودرس للناس في عدة فنون فبهر العقول وأدهش الالباب على اسلوب غريب بعبارة جزلة وطلاقة كانها السيل بحيث يكون جهد الفاضل البحاث أن يفهم ما يلقيه حتى قال له الطلبة تنزل لنا في العبارة فانا لا نفهم جميع ما تقول فقال لا تنزلوني اليكم ودعوني ارقيكم

الي بعد كذا وكذا . مدة حدها ، تصيرون الى فهم كلامي . فكان الامر كما قال . وكان جماعة من اعيان تلامذته يطالعون الدرس ويجتهدون في ذلك غاية الاجتهاد حتى يظن بعضهم انه يتفوق عليه فاذا وقع الدرس أَظهر لهم من المباحث ما لم يخطر لهم مع امتحانهم له مراراً فيجدونه في خلوته نائماً غير مكترث بمطالعة ولا غيرها . قال البقاعي حضرت درسه بجامع الازهر في فقه المالكية فظهر لي أَني ما رأَيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه وأَن من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا رأَى الناس بل ولا خرج الى الوجود . قال ابن الهمام هذا الرجل لاينتفع بكلامه ولا ينبغي أَن يحضر درسه الا حذاق العلماء ، وذكر البقاعي أَن هذا الامام هو الذي أَرشده الى ما وضع في التفسير من المناسبات بين الآي والسور . ولقد ذكرتني دروس هذا الامام بالازهر دروس عصريه الامام ابي القاسم العبدوسي في تونس لما رحل اليها ، اذ كل منهما حكى دروسه من عاصره ، الاول حكى عنه تلميذه البرهان البقاعي وعصريه الكمال ابن الهمام ، والثاني ابو عبد الله الزلديوي حيث قال لما ورد علينا بوصية من الامام بن مرزوق يصفه فيها بحافظ المغرب اجتمعنا به واقام عندنا أَزيد من عام رأَينا منه العجب العجاب من حفظ لا نتوهم

أنه يكون لاحد فما رأينا ولا سمعنا من يشبهه في حفظه فقد حضرت دروسه فرأيت شيئا لا يدرك الا بعناية ربانية موقوف ذلك على من رزقه الله الحفظ ينفق منه كما يشاء ، لازمناه حضراً وسفراً ، وعلمنا طريقه تفكرا ونظرا ، لا يقدر على طريقته الا من حاز فطنة كاملة الاستواء ممدة من جميع القوى ، فمن طريقه اذا قرأ المدونة يبتدئ على المسألة من كبار اصحاب مالك ثم ينزل طبقة طبقة حتى يصل الى علماء الاقطار من المصريين والافريقيين والمغاربة والاندلسـيين وايمة الاسلام واهل الوثائق والاحكام حتى يكل السامع ، وينقطع عن تحصيله المطالع ، وكذا اذا انتقل الى المسألة الثانية وما بعدها ، هذه طريقته في اقراء المدونة ، اما اذا ارتقى الى كرسي التفسير فعند ما يقرأ القارئ الآية يفتتح بما يناسبها من الاحاديث النبوية وأخبار السلف من الصحابة والتابعين واتباعهم ثم بعد ذلك يرجع الى الآية وربما ياخذ في نقل الاحاديث فيقول الحديث الاول كذا والثاني كذا الى المائة ثم يبتدئ المائة الثانية حتى يختمها والشك في الثالثة ينقلها بامر خارق للعادة والناس يتسابقون الى درسه رجالا ونساء ، ولحفظه المدهش اتهموه بانه لا يحسن اللغة العربية فأمرهم أن يقرءوا عليه كتابا في العربية فسلك في تدريسه طريقه في تدريس المدونة أفبد

لهم باصحاب سيبويه ثم نزل الى السيرافي وشراح الكتاب وطبقة النحويين وما زال ينقل حتى ذهبوا ولم يراجع في ذلك ، وقد سقنا وصف دروس هذا الامام التي يباهي بها المغرب غيره من اقطار الاسلام اخوته حيث ذكر صاحب النيل نقلا عن القاضي ابي عبد الله ابن الازرق أن هذه الطريقة في التدريس هي التي يدرس بها ابن اخيه الامام عبد الله العبدوسي بجامع القرويين بفاس ، اذ لا غرابة أن نجد نابغتنا الرحالة الوزان في غزارة علمه ، وسعة اطلاعه ومداركه من بين اولائك المتخرجين على امثال هاؤلاء الايمة في ذلك العصر الذي هو بحق من ازهر وازهى عصور العلم والحضارة العربية والتمدين الصحيح بالمغرب ، ولكن بمزيد الاسى والاسف تلاطمت امواج التغرب وذلة الاسر ، وطم هوان الصغار والقهر ، وتوالت نكبات الدهر ، فقضى ذلك على الكثير من آثاره ومحا من لوح الوجود معالمها وكاد الاهمال أن يجتث بقية مبعثر اخباره المقبورة بين اكداس الاوراق الغربية من اصلها . لولا أن الله هيأ في عصرنا المحمدي عصر النهضة العلمية واحياء ميت المعارف ، احد خريجي الجامع القروي المعمور ، محل ولدنا النابغة المهذب الكاتب المجيد العضو بالحكمة العليا ابا عبد الله محمد المهدي ابن صديقنا العلامة المشارك

ابي عبد الله محمد الحجوي مندوب المعارف الاسلامية ، بالمملكة المغربية فقام باحثا منقبا مجدا بهمة فعالة لا تعرف كللًا ولا مللًا وعزيمة صادقة لا يفل حدها في موالات البحث والتنقيب ، حتى حشر رميم تلك الرفات وبعثه من مرقده ، حرس الله بدر نجابته من الافول ، واهدى الى الناطقين بالضاد والمغرمين المولعين بالغوص في كل فج عميق لاستخراج الجواهر من الاصداف ، طرفة من أعلى وأغلى الطرف يستحسن تقديمها لاولي الالباب في العصر الحاضر ، تملي علينا بترتيل آيات من بيض صفحات تاريخ ابن بجدة الاخبار والوصف المدقق ابي علي الوزان المبرهنة لنا عن سالف مجده وما قام به لبني جلدته من الخدمات الفكرية الجلى علمية وعملية لا زال حتى الان يستظل الشرقي والغربي بما ابقاه متكاثف غيوم الدهر من آثار ظلالها الظليلة ويستقيان من رشح عين معينها الزلال ، ولقد وفق مؤلفنا المهدي في كتابته هذه الى الاجادة والاستنتاج وحسن التعليل والتحليل اكتشف بذلك طريقة مثلى جديدة في البحث والتفتيش في كنوز الاسفار ومخبئات الدفاتر ، وكتب شذرات من تاريخ المغرب الذي لم ينشر قبل بلغة الضاد ولم يحط مؤرخوها بجل تفاصيله خبرا باسلوب رشيق رائق ملائم لروح العصر وذوق نبلاء بنيه ، أرشد الله شبابنا الناهض الى

الاقتداء به في كتابة تاريخ اعلامهم وبلادهم الذي لا توجد اصوله الا باللسان الاجنبي من لغتهم العربية سيما من يستحق النظر لاعماله وآثاره بعين الاعجاب والاعظام كالجغرافي الكبير امام التاريخ المقتدى به في الاستدلال على الحاضر بالغابر والاستنتاج من الحوادث والوقائع ابي علي ابن محمد الوزان المعروف لدى الغربيين بليون الافريقي ، سماه بذلك الاسم البابا جان ليون العاشر ، روما لاحياء ذكرى ليون الطرابلسي الايطالي مقوض اسطول الدولة البيزنطية وأعظم بحار عرفه التاريخ الذي اعتنق الاسلام فاصبح اعظم ذخر واجل فائدة استفادها المسلمون ولذا أرى أن الوزان لما وقع في شبكة الاسر أعطي هذا الاسم تعويضا للخسارة السالفة ولو باحياء الاسم ولكن نور الاسلام لن تطفئه الزوابع .

قضى الوزان ما يقضيه الاسير المتشرد عن وطنه ، المغرب عن اشباهه ونظرائه المجانسين له ، في صورة طليق مكرم ، الى أن مضى لسبيله تاركا لبني جلدته ماتركه السجين في قفصه من بلل دمعه ولوعة احزانه وما يبقيه الاستاذ في مدرسته من سحر بيانه ، واثر بنانه ، ومما خلفه من التراث العلمي استمد مترجموه من اللغات الاجنبية الى لغة الضاد وبه اهتدى الكاتبون عنه ، وعسى ان نرى في القريب

العاجل اقلام مؤلفنا تنفث لنا من سحر بيانها كل آن فرائد الفوائد ويزفها الى الطلاب المتعطشين المتشوفين لما تخرجه لهم ابناؤهم مما عندهم من العلوم والمعارف ، وأن نرى شبابنا المثقف المحبوب يحذو هذا الحذو في ابراز امثال هذه الجوهرة النفيسة القيمة واكتشاف ما لعامل سلفنا من دفائن الكنوز العلمية والادبية التي لا يفنى ثروتها انفاق بل الانفاق لا يزيدها الا نماء على ممر الليالي والشهور والاعوام وحلل زينتها لا يبلى جديدها توالي الجديدان ، فهي وعمر ابيكم اولى بالاشهار والاتجار والترويج في اسواق الآداب العربية النافقة ، خدمة للغتهم التي هي لغة القرآن المتحدى به . ويكون لهم بذلك ثواب المحسنين واجر العاملين ويحصلون به على تمام الرفعة وغاية الشرف ومنتهى الكمال .

حرر بمكناسة الزيتون في ٧ ربيع الثاني عام ١٣٥٤ .

ابن زيدان



تقريظ

للاستاذ العلامة القاضي الجهبذ سيدي احمد سكيرج

هكذا ينبغي من الشبان ❀ أن يقوموا بواجب الاوطان
مقبلين على التعلم حتى ❀ يصلوا لمناهم في أمان
مغرمين بالاطلاع على ما ❀ يستحقون فيه كل التهاني
فنرى منهم الترقي الحقيقي ❀ في مراقي العلوم والعرفان
ليحلوا في وجهنا من جنان الـ ❀ علم ابواب قصر حور المعاني
ونرى منهم نتائج ما نا ❀ لوا بحسن التعليم دون توان
واذا ما تعلم الحر علما ❀ فهو فيه يكون كالترجمان
فيفيد العموم سراً وجهراً ❀ بعلوم رقته في الاعيان
تاركا كفر نعمة شملته ❀ شاكراً مسديها مدا الازمان
لم يزل يبحث الدفاتر حتى ❀ جاء منها بآية وبيان
وهو فينا المهدي الموفق حقا ❀ حيث اضحى مترجم الوزان
فهو احيى منه مئاثر كانت ❀ في زوايا الخفاء في استحسان

(واذا الشخص كان يعرف في قو ❀ م لسانا في غاية الاتقان)
(وانتحى عن افادة الناس مما ❀ قد دراه فما له من لسان)
ايها المهدي للعموم علوما ❀ كالرضى المهدي نير الاذهان
لك منا الشكر الجميل ولا زا ❀ ل ابوك الحجوي رفيع مكان
دمت ميمون طالع في رضى وا ❀ لدك الشهم ظافراً بالاماني

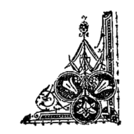
احمد سكيرج امنه الله



فهرس كتاب حياة الوزان وآثاره

القسم الاول : حياته

القسم الثاني : آثاره



الورقة الثانية من قاموس الوزان وهي الورقة الثالثة (انظر ص ٦).

أجذم — leprosus i. mutilatus manu

أجنبي — extraneus non a finis

أجهر — luscus

أحد — unus i. solus

أحمر — rubeus

أحمق — stultus

أحدب — gibbosus

أحول — strabosus

أحرش — asperum

أخ — frater

أخذ — acceptio et duo partes ...

أخمع — claudicans

أطرش — surdus

أخمص — venter diminutus

أظلع — claudicans

أخضر — viridis

أديم — superficies

أدب — morigeratio et poema

أديب — poeta

أدهم — niger ... et ... terrea

أدبس — fuscus color

أغمش — obscurus

أذلف — nasus ... aquilinus

أداة — instrumentum

117

فرغ من نسخ
هذا الكتاب
العبد الفقير
الى الله مؤ
لفه يوحنى
الاسد
الغرناطي
المدعو قبل
الحسن بن محمد
الوزان الفاسي
في أواخر شهر
عام اربعة
وعشرين لتاريخ
المسيحيين
الموافق لعام
ثلاثين
وتسعمائة
لتاريخ
المسلمين
وذلك بمدينة
بلونيا
من بلاد ايطاليا
برسم
المعلم الحكيم
الطبيب
الماهر
يعقوب
بن شمعون
الوفي الى
شرائعه

الورقة الأخيرة ويلاحظ فيها بعض النقص في النقط وغيرها وذلك مما يؤيد ان هذه النسخة هي مبيضة المؤلف لم يراجعها

القسم الاول

حيـــــاتـه



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أريد ان اضع على بساط البحث نابغة من نبغاء الحضارة العربية ، ودرة يتيمة من عقد تاريخ رجالها المجيد ، ونجما من نجوم سمائها قد استضاءت بنوره عصور ، واهتدت به اجيال ، بل عنوان صفحة من تاريخ مجدها الاثيل ، طالما سكتت عنها السن الذاكرين ، واغفلتها اعين الناظرين ، اعني بهذا النابغة ابا علي الحسن الوزان الفاسي المعروف « بليون الافريقي » واعني بهذا العنوان اسمه الذي أحر به ان يكتب بالذهب في طالعة نوابغ الاسلام .

الوزان هذا هو احد افذاذ الامة العربية واساطين العلم ونوادر العبقرية ، واحد ايمة التاريخ والجغرافية .

نشأ هذا العالم تحت ظل حاضرة المغرب فاس ، وتربي بين جدرانها وتغذى بعلومها ودرج منها يضرب في الارض تارة للاستفادة

والبحث واخرى في مهام وطنه فما شعر حتى أحاطت به حبائل الاسر ووجد نفسه أسيراً بروما بين ايدي الباب اليون العاشر بالعاصمة الكاتوليكية فما فت ذلك في عضده بل اصبح وهو في سياج الاسر يفيض على الانسانية باروبا انوار المعارف العربية لا يفرق في انتشال الانسانية بين عربي وعجمي وهو مع ذلك لم يسل طرفة عين عن وطنه ولم يزل يحن الى سكنه يترقب لعودته الفرصة بعد الفرصة حتى قفل فارا الى ارض افريقيا ولا ادري هل عاد الى مسقط رأسه ام حالت الاقدار دون مراده .

وقد اسدى للانسانية الايادي البيضاء بالتآليف ونشر العلم قبل اسره وفي اسره حتى انه لاحق بان يعد في مقدمة من يرجع اليهم فضل النهضة الاروبية الحديثة التي يعيش العالم اليوم تحت ظلها والتي كان تفجر معينها من روما على عهده ويرجع هذا الفضل معه لفاس التي زودته بمعارفها وتهذيبها .

وآثاره التي خدم بها تلك النهضة كثيرة عرف منها كثير وبلغنا منها كتابه في وصف افريقيا على عهده وهو قسم من كتاب جغرافي عام الفه بالعربية وترجم هو منه هذا القسم الى اللغة الايطالية ايام اسره وعن هذه الترجمة نقل الى عدة لغات وطبع عدة طبعات وقد

ضاع الاصل العربي بجميعه او لا زال تحت ظلمات المهملات بخزائن أروبا ولم يبق من الكتاب الا هذا القسم المترجم وقد جعل له مقدمة في جغرافية افريقيا العمومية كانت قيمتها بالنسبة الى الجغرافية كقيمة مقدمة ابن خلدون بالنسبة الى التاريخ ، وقد اتخذها ابارب النهضة الحديثة انموذجا لابحاثهم الجغرافية كما انني وقفت للوزان هذا في خزانة الاسكريال على قاموس طبي يفسر الالفاظ العربية باللتينية والعبرانية الفه لبعض اصدقائه من الاطباء يقع في ١١٧ صحيفة مسجل تحت عدد ٥٩٨ من القائمة الجديدة ، وسنورد بعض صفحات منه وقد الف غير ذلك مما سنعرج عليه .

لقد عزمت على ان اخص هذا الرجل العظيم الذي لا يقصر قدرا عن ابن خلدون وابن الخطيب ببحث في تاريخ حياته وتحليل كتابه استرد به على خزانة الادب العربية والتاريخ الاسلامي ذخيرة من ذخائرها وكنزا من كنوزها الثمينة طالما استأثرت به خزائن العالم دونها . اردت ان احيي ذكرى هذا الرجل العظيم في مؤتمر فاس الحفيل ، وقد مضى على حياته ازيد من اربعة قرون اعترافا بجميله على العلم والانسانية واعجابا بعبقريته ونبوغه الآن وقد سنحت لي فرصة الاسهاب في الحديث عنه بمناسبة هذا المؤتمر بعد ما اشرت الى ملخص حياته وقيمته العلمية في كتابي « الجغرافية واطوارها » .

ان ترجمة هذا الرجل لمن اجل التراجم التي يتحلى بها جيد الانسانية وتفتخر بها المدنية الاسلامية ، وانها وان كانت من اغمض التراجم واغلقها فهي اجدر بالبحث والتنقيب واحق بالانتشال من الاهمال .

تكاد هذه الترجمة على اهميتها تكون مجهولة عند مؤرخي العرب ولم اعثر على ازيد من ذكر اسم صاحبها في كتاب او كتابين فقط من الكتب العربية وربما ذكر محرفا ، اما عند الافرنج فتوجد بعض كلمات عن هذا الرجل متفرقة في كتب مختلفة واصح وامتع ما هناك ما امكنني التقاطه من كتاب المترجم نفسه على ان ما في كتابه عن حياته لا يوخذ الا بطريق اللزوم والاستنباط اذ لم يرد هو ان يدرج تاريخ حياته في كتابه عند الاشارة اليها وانما يذكر ذلك عرضا واستطرادا ، ويوجد اسمه ونسبه مصرحا به في خاتمة قاموسه الطبي الذي تقدمت الاشارة اليه واكتشفه كازيري Casiri بخزانة الاسكريال وحقق نسبته اليه وقد وقفت عليه هناك وترجم الوزان ببعض اسطر ، واصح ما يستند اليه في حياته من غير كتابه بعض جمل جعلها راميزيو Ramusio في آخر المقدمة التي صدر بها كتاب المترجم وعنها نقل من ترجموه وسنرجع لتفصيل ذلك ، وقد فزعت الى غير ذلك من المواد داخل المغرب وخارجه لبسط الموضوع والمقدمة منقولة في طبعة سنة ١٨٩٥ م .

اسـمه

أمـا اسمـه الذي يعرف به وبه اشتهر فهو « ليون الافريقي » "Léon l'Africain" الا اننا نجده ختم كتابه القاموس الطبي بهذه الكلمة : « فرغ من نسخ هذا الكتاب العبد الفقير الى الله مؤلفه يوحنى الاسد الغرناطي المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي في آخر ينير عام اربعة وعشرين (١) لتاريخ المسيحيين الموافق لعام ثلاثين وتسعمائة لتاريخ المسلمين وذلك بمدينة بلونيا من بلاد ايطاليـا برسم المعلم الحكيم الطبيب المـاهر يعقوب بن شمعون الوفي الاسرائلي » فكانت هذه الكلمـة كـكلمة اولائك الذين يدركهم الغـرق في مجاهل البحـر فيكتبون كلمة عن حالهم وعن النقطة التي هم فيها ويجعلون الكلمة في قارورة ويكلونها الى امانة البحر ، وكم حفظ التاريخ من فـوائد لهذه القارورات ، وكم من اكتشافات هلك اصحابها ، ولولا القارورة ما عرفت وقارورة الحسن الوزان التي ضمنها كلمته وهو في مجـاهل الغربة هى قاموسه الطبي المذكور ، وقد افادتنا هذه الـكلمة اسمه الاصلي واسم والده واسمه الحادث وبلده الاصلي ومحل اقامته ساعـة

(١) اي بعد الف وخمسمائة .

الكتابة وتاريخ وجوده هناك وتمسكه بعوائد قومه ومنها دينهم ، وكونه افاد اروبا في علم الطب زيادة على التاريخ والجغرافية وغير ذلك مما سنعرج عليه بتفصيل ، وقد وقفت على القاموس بخزانة الاسكريال واليك بعض صفحات منه ولعله بخطه كما ترى في الصفحة الاخيرة :

عائلته

قد زاد بعض من ترجموه وهو كازيري Casiri (١) بعد ذكر اسمه انه من عائلة الزيادي وزاد له جان البير ويدمانسطر J.-A. Widmanstard بعد « ليون لَفريكان » لفظة « ايليبري Elibery » ولعله يريد بذلك أبا علي ، اما العائلة الوزانية بهذا اللفظ فقط فلم اعثر من نوعها الا على بقية من نساء وصبيان لايعرفون لاصلهم اصلا وانما يعرفون ان عائلتهم طرأت على فاس وكانت وافرة العدد وهي الآن في الاضمحلال .

وقد وقفت في الجذوة (٢) على ترجمة « أبي القاسم بن احمد بن زياد الاندلسي الغرناطي من اهل مدينة فاس وأحد عدولها اخذ عن ابي الحسن علي بن هارون المطغري بها وكان نحويا بيانيا فقيها توفي بفاس سنة اربع واربعين وتسعمائة » .

---

(١) Bibliothéca Arabico-Hispana 1720 (٢) صفحة ٣١٨ ط فاس .

وقال في درة الحجال (١): « احمد بن احمد الوزان فقيه نحوي يستظهر كتاب خليل اخذ عن ابي عبد الله محمد القصار وعن ابي العباس المنجور وغيرهما وهو حي من اهل العصر وله مشاركة في النحو والاصلين ولد سنة ٩٦٤ » فالذي ينبغي ان يلحق به الوزان هو احد هذين الشخصين او هما معا ، وهذا انما هو محض ترجيح والا فلم نقف على قبيله على طريق الجزم بفاس وعجيب ذلك حيث يظهر من كلامه انه كان من عائلة نبيلة نبيهة عريقة في المجد والرفه ، ومن كتابه يمكننا ان نستفيد بعض الشيء عن عائلته . ذكر عن ابيه محمد الوزان انه كان يمضي فصل المصيف بقصر عباد قرب فاس لهوائه العليل وطقسه المعتدل وكان بيده بكراء لمدة طويلة من احباس فاس الكبرى وكان له وظيف في بعض الجهات بالريف ولعله على ضرائبها (٢) ، ويذكر عن عمه انه كان يذهب في السفارات المهمة وقال عنه في الكتاب الثاني انه كان شاعرا مجيدا وخطيبا مفوها قال ولما بلغ قرب درعة في سفارة كان يصحبه فيها استدعاه عامل عظيم هناك لما يعلم من شهرته في الدوائر الحكومية فأبى ان يجيب دعوته ورأى في ذلك حطاً من قدر مأموريته فبعث اليه بقصيدة اعتذارية وصفها المترجم بما يوصف به شعر كبار

---

(١) ترجمة عدد ٢٠٧ — (٢) ص ٣٠٥ ج ٢ .

الادباء وبعث اليه بالمترجم فأكرمه وزوده بهدايا مهمة تنبئ عن اعتباره الكبير لجانب عم الحسن ، وقدم له الحسن قصيدة فائقة كذلك ، ويذكر عن نفسه انه توظف صغيرا جدا وأُسندت اليه السفارات المهمة على حداثة سنه . كل ذلك يدل على انه من بيت سفارة نابه ووسط رفيع . زد على ذلك ما ذكره كثير من المؤرخين من ان مهاجري الاندلس كانوا يلقون بفاس ما ينسيهم وحشة الغربة ويسليهم عن بلدهم النازح لما كانوا يجدونه في اهلها من حسن القرى واكرام المثوى وما كانت تمطره عليهم الاحباس من المادة الكافية الخاصة بالغرباء مطلقا وبطلاب العلم منهم خاصة ، والمداخل الموقوفة لمثل هذا الصدد كانت وافرة اذ ذاك وافية بالحاجيات ، وقد وصف شيئا من ذلك هو في كتابه وذكر ما كانت عليه المداخل ايام المرينيين وما صارت اليه من الضعف ايام الوطاسيين وتأسف على ذلك كثيرا مع ان ما وصف في حالة الضعف أي في ايامه واعتبره قليلا هو كثير كاف للحاجة ، ثم ان الحكومة كانت تقرب كثيرا مهاجري الاندلس وتسند اليهم المهمات وقد بقي ذلك متوارثاً عندها الى زمن غير بعيد .

مولده

ذكر سائر من ترجموه انه ولد بغرناطة وحمل صغيراً الى فاس

وبها نشأ ولم اجد في كلامه ما يدل لذلك ولم ادر ما مستندهم فيه ولكن حيث ذكر ذلك راميزيو Ramusio وويدمانسطر Widmanstard وهما معاصران له والغالب انهما لقياه معا فلا يسعنا الا القبول ، وسائر كلامه لا يقتضي انه عرف غرناطة ، وغاية ما يوخذ من كلامه انه قضى صباه بفاس وما عرف سواها ولا ينافي ذلك خروجه من غرناطة قبل سن التمييز ، واما تاريخ ولادته فيمكن اقتباسه من بعض مفاهيم كتابه « وصف افريقيا » قال في الكتاب الثاني عند الكلام على اسفي ، بعد التأسف على سقوطها في يد البرتقال وذكر اسباب ذلك ، ان عمره اذ ذاك ١٢ سنة ومعلوم ان اخذ اسفي كان سنة ٩١٣ هـ . ١٥٠٨ م . وقال ايضا انه أوفد الى اسفي وعمره ١٤ سنة وذلك سنة ٩١٥ هـ . فيكون مولده سنة ٩٠١ هـ . ١٤٩٦ م .

نشأته

نشأ وتربى بفاس في بلد تجلت الطبيعة به في اجمل مظاهرها وارق صفاتها ، ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، وهواء يشفي العليل ، ازهار واطيار ، وخمائل وغلائل ، مناظر توحي الى النفس الشعور والرقة ، وتبعث في الخيال روح الابداع الحقة ، تلك بلد النباهة والكياسة ،

والعلم الدافق ، والادب الرائق ، تربي في حجر والده في الوسط الذي تقدمت الاشارة اليه ، وسط العلم والرفعة والادب ، وهو مع ذلك ينتمي بأصله الى غرناطة ومـا ادراكما غرناطة ، فهو بطبيعة الوسط الذي نشأ فيه مهيأ لان يكون أديباً عالماً سياسياً مهذباً بالطبع .

وكان يرافق والده في اسفاره للريف لقضاء مهمات وظيفه وكان يرحل كل سنة منذ صباه لحضور موسم مولاي بوعزا (الشيخ أبي يعزى) بالاطلس بمدينة تاغيا كما حكى هو ذلك عن نفسه (١) ، وبسبب هذه الاسفار التي كان يقوم بها كل سنة جنوباً تارة وشمالا اخرى تعرف بنواحي فاس وكان ذلك اول معلوماته الجغرافية ، ويوخذ من كلامه في خاتمة كتابه انه رحل رحلة أولى في صباه الى بلاد كثيرة شاسعة بافريقيا وأسيا سردها في الخاتمة المذكورة كل ذلك اهله لان يكون جغرافياً ماهرا مارس الفن بالمعاينة والاختبار منذ صباه ، واتم التجربة والمشاهدة في شبابه برحلاته العديدة في المغرب وافريقيا ثم في الشرق ثم في أروبا ، فهو الجغرافي اذن بالطبع والذي يستحق ان تطأطأ له

---

(١) قال ص ٣٠٥ ج ٢ : وتعرفت كثيراً بهذه الناحية وبأهلها لان أبى كان له وظيف هناك وكان يصعب عليه استخلاص ضرائب الارض والعنب منهم حيث انهم أناس مماطلون . وقال في ص ٣٠ ج ٢ انني بعد ما بلغت رشدي كنت اذهب كل سنة لموسم ولي بالاطلس يبعد عن فاس بمائة وعشرين ميلا وهو في مدينة اسمها تاغيا الخ . لف

الرءوس والذي استحق ان يكون شيخ أروبا وشيخ النهضة الكبرى .

وهو مع ذلك تعلم بجامع القرويين الزاهرة اذ ذاك بالعلوم الدينية والنظرية ، واخذ من العلم الحض الاوفر كما تشهد بذلك تآليفه وآثاره ، فهو مع نشأته الجغرافية نشأ كذلك نشأة علمية دينية وقد ظهر أثر ذلك كله في كتابه فترى الروح الدينية من صدق واخلاص واعتدال ونقد لما خرج عن الفضيلة والاخلاق الكريمة والاستقامة تتدفق في كتابه الى غزارة علم في كل ما يطرق وتبصر بالموضوع يبعده عن الرحالة الوصافين وصفاً جافاً ويجعله رأس علماء هذا الفن وقد ظهر أثر تربيته العالية وحنكه السياسي في معرفته كيف ياخذ بلب اليون العاشر ودائرته الكاتوليكية المتعصبة حتى طأطأ الكل له وأدعن لعلمه وأصبح وهو في الاسر يعيش عيشة الحر الطليق بل السيد المطاع .

وترك الافئدة تتحسر عليه وعلى علمه وتتطلبه بكل ما في وسعها يوم فارق تلك البلاد وآب الى ارض الاسلام ، تلك هى آثار نشأته العالية وثقافته المحكمة .

دخوله فى الحياة العامة

أول باب ولجه من ابواب الحياة العامة باب الوظيف كأبيه

وعمه ، وقد توظف وهو صغير السن جداً عدلا بالمستشفى الكبير بفاس مدة سنتين باجرة قدرها ثلاث دكات (١) ، وهذا المستشفى هو المعروف الآن بسيدي فرج وعليه تنطبق الاوصاف التي ذكر في كتابه ، وكان ذلك ايام الدولة الوطاسية التي كثيرا مايعبر عنها هو بالمرينية رعيا للاصل وكان عمره اذ ذاك على مايستنتج من كلامه نحو ١١ سنة .

حياته فى المغرب واسفاره

لم يلبث ان ظهرت اهليته لتقلد مهام الاعمال وخوض لجة السياسة . ذكر في الكتاب الثاني من وصف افريقيا عند الكلام على سقوط اسفي في يد البرتقال انه اوفده سلطان فاس والشريف محمد للمخابرة مع قائد اسفي ورده عن الاخلاص لجانب البرتقال ، وقد استعمل ما امكنه من الحيلة والتلطف فلم ينفع ذلك معه وكان عمره اذ ذاك ١٤ سنة وكان هذا سنة ٩١٥ هـ . وتعرف اذ ذاك بالامير الشريف محمد وجرت له معه قضايا ذكرها في كتابه . والشريف

(١) الدكة تزن ثلاثة كرام ونصف ذهباً يوخد ذلك من تتبع كلامه عن الدراهم بالمغرب ومقابلتها مع ما يذكر من الدراهم بايطاليا اذ ذاك .

محمد هذا هو محمد القائم بامر الله السعدي ، استولى على السوس الاقصى وحاحة وبويع له هناك سنة ٩١٥ ه وهى السنة التي اتصل به فيها المترجم ، وكانت لهذا الامير حروب مع البرتقال حضر المترجم بعضها وكثيرا مايحدثنا عنه وعن حروبه في كتابه . وسلطان فاس هو محمد البرتقالي الوطاسي ثاني ملوكهم وهو ابن محمد الشيخ قال الوزان « ولقب بالبرتقالي لانه اسره البرتقال ايام ابيه في اصيلا ومكث عندهم سبع سنين ولما افتداه ابوه ورجع وجد يتقن البرتقالية فلقب بالبرتقالي » ويحدثنا كثيرا عنه الوزان باسم سلطان فاس كما يحدث عن السعدي باسم الشريف محمد . وبويع محمد البرتقالي سنة ٩١٥ . ولما رجع الوزان من سفارته الى اسفي اوفده في السنة نفسها اي سنة ٩١٥ سلطان فاس مع احد قواده ليحوز الجزية من يهود تفزة بتادلة وقدر هذه الجزية خمسون الف دكة ، وفي سنة ٩١٧ ذهب الى تمبكتو عاصمة السودان على طريق درعة وتجول في بلاد السودان وصعد مع نهر النيجر وتعرف باطرافه كثيرا (١) ورجع الى فاس على طريق سجلماسة ، ولم يذكر لنا القصد من هذا السفر وهل كان سياسيا ام استطلاعيا فقط ولا نظنه الا سياسيا ،

---

(١) ص ٦ ج ١ .

ولعل الرجل كان يسعى في حلف بين ملوك المغرب والسودان ضد البرتقال ولذلك قام بهذه الرحلة ، ويظهر من بعض كلامه اولا انه كان وحده في هذه السفارة او الرحلة ، وفي الكتاب الثاني يذكر انه كان صحبة عمه بدرعة في طريقه لتمبكتو وهل الرحلة هى الرحلة ام تكررت ، ذلك ما لا أجد اه تفصيلا .

وخرج سنة ٩١٩ من مراكش الى حاحة حيث لحق ايضا بالامير الشريف وصحب ركابه الى السوس الاقصى وحضر بيعة اهل تردانت وغيرها من مدن السوس للامير المذكور ومن هناك ذهب في سفارة الى اسفي ليباشر الامر مع قائدها مرة اخرى باسم سلطان فاس والشريف محمد كذلك وحضر معركة بولعوان بين المسلمين والبرتقال ثم قفل راجعا الى مراكش .

وفي سنة ٩٢٠ يذكر لنا انه كان بحاحة في مامورية ومن هناك قطع الاطلس ماراً بباب امزميز واتصل بالشريف محمد الذي كان اذ ذاك وراء الاطلس ثم رجع الى السوس ومن هناك توجه نحو فاس وحضر صلح سلطان فاس محمد البرتقالي مع ابن عمه بمدينة مصدر عوان على ابي رقراق ورافقهما الى تاغيا حيث تعاهدا على الاخلاص والوفاء فوق قبر ابي يعزى ومن هناك توجه الى فاس .

وفي سنة ٩٢١ وصل الى سلا وزار قبور المرينيين بشالة ووصفها ووصف خراب الرباط اذ ذاك وخلوه من العمران الذي كان به على عهد المنصور الموحدي ، ومن هناك اتصل بالشريف وكان قرب الجبل الاخضر ، ثم اوفده هذا الامير في مامورية الى مراكش ، وحضر في هذه السنة مع سلطان فاس في بعض جولاته بتادلة ونواحيها ، وفي وسط السنة حضر معركة المعمورة على مصب نهر سبو ، وحضر كذلك الهزيمة الشنيعة التي تحملها المسلمون على ابواب اصيلا بجنب محمد الوطاسي ، واثر هذه الهزيمة غادر المغرب متوجها نحو الاستانة ولم يذكر لنا علة سفره ولكنها لاتكون الا لفائدة وطنه المهدد ، ولا اشك انه ذهب لاستنجاد سلاطين آل عثمان . (ومما يؤيد ذلك انه ذهب الى الاستانة ثم رجع الى مصر سريعا وكان وصلها السلطان سليم وذكر لنا انه حضر دخوله للاسكندرية ثم قفل راجعا الى المغرب دون تأخر) وعند مبارحته المغرب مر على مدينة دبدو قال : « وكان ذلك آخر سنة ٩٢١ » ونزل على حاكمها وذكر انه من آل رحو واسمه محمد بن احمد واكرم وفادته حيث كان حاملا اليه مكاتب وصاية من ملك فاس واخيه وهذه المكاتب مما يؤيد ايضاً ان رحلته كانت سياسية .

فحياته كما ترى كلها تنقلات وسائر ماموريباته ممزوجة بالاسفار لم يلق فيها قط عصا التسيار ، وقد دخل معترك الحياة كما رأيت على حداثة سن لايومن بها من لم يتتبع احواله في كتابه ويستقرالجزئيات التي يذكر عن نفسه مع مقابلتها بالقضايا التاريخية الخارجية ومناقشته الحساب في كل ذلك وعندي ان ذلك لايسلم من الاستغراب .

دخل الوزان معترك الحياة دخول ابطال الرجال على حداثة سن فجلى وابلى بلاء تجده غريبا في تاريخ حياة الرجال ، نعم ذاك غريب اذا قيس بسنه ولكن لابدع هناك في حق الشباب المغربي ، فقد حفظ له التاريخ اعمال كثير من افراده المبكرين في النبوغ العلمي والسياسي ، وذلك باب فتحه المولى ادريس بن ادريس رمز الشباب المغربي العربي بما فيه من نبوغ وكفاءة ، ومثال الفضيلة المحمدية والشمم الهاشمي والعبقرية القرشية ، فقد بويع وهو ابن احدى عشرة سنة وقام بالملك احسن قيام واسس دولة من افخر الدول تاسيسا ونظاما واسس لمملكته عاصمة من افخر العواصم وهو ابن خمس عشرة سنة لم يؤسس العرب مدينة احسن منها مناخا ولا اليق منها بقعة للعمران ومات بعد ان بلغت دولته العنفوان وهو ابن ست وثلاثين سنة وله نظائر في تاريخ المغرب نبغوا مبكرين في مختلف مظاهر الحياة لانطيل بهم ومنهم المترجم .

رحلته خارج المغرب

أما رحلته الى المشرق في صباه فلا ندري عنها شيئاً مفصلا غير ما سرده من البلاد الكثيرة التي شاهدها وسنورد ذلك ، الا أننا نستفيد من هنا أن فكرة كتابه كانت تمخض عنها قريحته منذ صغره ، فكانت نفسه تحدثه منذ ذلك العهد بكتب رحلة يعيد فيها رحلة ابن بطوطة التي كان قد ضاع اصلها لصاحبها واملاها من حفظه فلم تسلم من الاغلاط والنقص ، وقد جرى على منواله فبدأ بالمشرق ثم المغرب ثم داخل افريقيا ثم زاد الرحلة الثانية الى المشرق وطرف من افريقيا ثم رمت به الاقدار الى أوروبا الا ان رحلته جاءت اوسع مادة وأغزر فائدة وأقرب الى العلم والاختبار منه الى الوصف الجاف لو بقيت كلها ، ولا نعرف عن رحلته الاولى شيئاً كثيرا ولا عن الثانية اكثر من ذلك حيث ان القسم الذي بقي من كتابه انما يتعلق بافريقيا ، وغاية ما يستفاد من كلامه انه غادر تونس في الرحلة الثانية قاصداً القسطنطينية العظمى سنة ٩٢٢ هـ. ومنها رجع الى مصر ، قال هو انه كان بمصر بعد وقعة السلطان سليم بشيء قريب أي بعد سنة ١٥١٨ م. وقال ان وجوده هناك وافق خروج السلطان سليم من الاسكندرية ، ومعلوم ان خروج هذا السلطان من الاسكندرية كان في جمادى الاولى

سنة ٩٢٣ هـ. وقد ذكر انه صعد مع النيل الى السودان المصري وجال هناك كثيراً ثم ابحر الى جدة وزار الينبوع ثم ذكر انه كان سنة ٩٢٤ هـ. بطرابلس الغرب وكان بتونس سنة ٩٢٦ هـ. وهنا ننقل ترجمة كلمته التي ختم بها كتابه والتي ذكر فيها برنامج رحلته قال : « ولكن اذا ساعدتني الاقدار ومد لي في العمر حتى أحرر وأنجز العمل الذي أملته جمعت وكتبت سائر ما أبصرت سواء بأسيا او جزيرة العرب السعيدة القاحلة المتحجرة مع طرف مصر الذي هو بأسيا متعرضاً لبغداد وفارس وأرمينيا والتتار، تلك البلاد التي رأيتها وقطعتها في صغري، مع رحلتي الاخيرة التي قمت بها من فاس الى القسطنطينية ثم الى مصر ثم ايطاليا وقد عرفت اثناءها جزائر عديدة وباعانة الله اكتب ذلك كله بعد رجوعي من أروبا وأصف هذه القارة الاخيرة وصفاً مدققاً منظما بعد وصف أسيا ، أصف في كل ذلك ما رأيته معاينة ، والآن اقدم هذا الوصف المتعلق بافريقيا للافكار المتنبهة والمتعطشة لمثل هذا العمل » هذا برنامج رحلته وملخص تنقلاته ، وفي هذا ما يكفي من التصريح بكونه رحل مرتين الا ان الرحلة الاولى لم يتعرض لها من ترجموه ولم يتعرض لها هو الا في هذه الكلمة ، واذا كان حج وعرف جزيرة العرب فذلك في هذه الرحلة الاولى وبالطبع يكون فيها

مرافقاً لغـيره حيث ان تاريخ حياته يقتضي أنه قـام بهـا قبل بلوغه من العمر ١١ أو ١٢ سنة ، وحيث اننا نرى اوقـاته كلها عـامرة بالتجول في المغرب منذ بلغ نحو ١٢ سنة الى ان فـارق المـغرب في الرحلة الاخيرة ، ورحلاته على هذا متعددة وبرنامجـها على ما يقتضيه كلامه أنه بدأ بجزيرة العرب ثم العراق ثم فارس ثم ارمينيا ثم بلاد التتار وعاد الى بلده ثم رحل الى أواسط افريقيا عند اقامته بالمغرب وقد ظننا ان تلك الرحلة كانت سياسية ثم رحل الرحلة الثانية الى المشرق فشق بلاد افريقيا الشمالية ثم أبحر الى القسطنطينية ومنها الى مصر ثم سودانها وعاد قاصداً بلده ، وظننا أن هذه الرحلة كانت سياسية ايضاً حيث ان المغرب كان في ضيق يستنصر ويستغيث ومقام الوزان السياسي يقضي بجعله سفيراً الى تركيا والى مصر يستغيث لبلاده ، وذهابه لمصر بعد الاستانة ومصادفته للسلطان سليم هناك ثم رجوعه دون ان يعرج على غير هذه البلاد ولا ان يحج مما يرجح ذلك ، ثم ان رحلته باروبا لا أظن انها تتعدى بلاد ايطاليا وجوارها .

أما رجوعه من ايطـاليا الى البلاد الافريقية فيوخـذ من كلام ويدمانسطار صاحب مقدمة الانجيل السالف الذكـر والذي سننقل عبارته مطولة فيما ياتي ، قـال فيما يتعلق بغرضنا : « طلب مني (اي



الكردنال) ان ارد على روما ومن هناك على افريقيا لانظر ليون وقد حاولت ذلك بدون جدوى في الصيف الماضي » وقال قبل هذه العبارة : « انه رجع الى تونس » ولا أدري بعد هذا كله هل عاد الى وطنه المغرب او فاس التي طالما تغنى بها ام لا .

اسرة

مضى على أمم الارض حين من الدهر تقاطعت فيه صلاتها واشتد وطيس حروبها السنين الطوال وربما كانت الحرب تنتهي بين الصفوف المتقابلة والزمر المتزاحفة ولا تنقطع البغضاء والشحناء ومناوءة الشر ، فكانت الحرب على نوعين : حرب مبارزة تنتهي بانكسار أحد الفريقين وحرب لا تنتهي بانتهاء ذلك وهي حرب الغارات البحرية التي كان يقوم بها القرصان ، وكان من جملة نتائج هذه الحرب ولا سيما البحرية أخذ الاسارى بين الفريقين ، ولم يكن من بين هؤلاء الاسارى مجرد العساكر والملاحة بل كان بينهم العلماء والادباء وكبار الرجال ، وتتبع حياة هؤلاء الاشخاص وأحوالهم وتأثير أسرهم على سير المدنيات وتبادلها يستلزم دراسة خاصة ووقتاً وافرا ، والادباء كافة يعرفون روميات أبي فراس الحمداني وأسبابها والجغرافيون

يعرفون كتاب مرمول Marmol العالم الاصباني الذي كان أسيراً عند محمد الشيخ السعدي والظروف التي كتب فيها الكتاب والمؤرخون يعرفون ابن القاضي وأسره بأروبا وسرفانطيس Servantès العالم الاصباني وأسره بالمغرب ومويط Mouëtte الذي كان أسيراً بالمغرب كذلك وكتب عن المولى الرشيد والمولى اسماعيل ، وغير هؤلاء ممن يطول عدهم وسنعرف هنا كتاب الوزان « ليون الافريقي » في وصف افريقيا وتاثيره على النهضة الاروبية الكبرى في القرن السادس عشر للميلاد وتاثيره على فن الجغرافية . سنعرف هذا الكتاب والظروف التي كتب فيها مقدمين البحث في تاريخ حياة صاحبه وأطواره وعصره الذي عاش فيه بالمغرب ثم بأروبا وما الى ذلك مما تستلزمه دراسة حياة رجل عظيم وسنعود الى تحليل الكتاب بما يستلزمه كتاب هام مثله . فليون الافريقي او أبو علي الوزان هو احد اولائك الذين أصابهم سهم الاسر وتجرعوا مرارة الغربة ولم يفتروا عن خدمة الانسانية مع ذلك .

كان الوزان بتونس سنة ٩٢٦ هـ . ومنها ابحر قاصدا المغرب راجعا من رحلته الثانية فاسره قرصان ايطاليا قرب جزيرة جربة وذهبوا به الى نابولي وكانت معه مبيضة رحلته وبعض كتبه فرأى القرصان

ذلك وعلموا انه من اهل العلم والجاه فقدموه هدية للباب جان اليون العاشر الملك بروما ، وكانت لهذا الباب عناية بعلوم العرب ورغبة في نشرها ببلاده وكان يقدر قدر منفعتها ويرغب في تعاطيها حتى كان ذلك من عوامل النهضة الاروبية الكبرى .

وجد الباب في هذا الشخص المهدى له ضالته المنشودة ومرغوبه الاكيد لمساعدة مشروعه فتلقاه بالقبول وادخاله في خاصته وسماه باسمه « جان ليون » او يوحنى الاسد وأشاع من ترجموه انه تمسح على يده ولكن لاحجة تبرر ذلك الادعاء ، وقد مر بك تمسكه باسمه الاسلامي واستعماله لتاريخ المسلمين في كتبه مع بعده عن بلاد الاسلام وقد رأيت انه يتمنى ان يعود لبلده ويكتب عن أروبا ، ومن المحتمل ان الباب نفسه هو الذي اشاع ذلك ليقبل الناس على صاحبه ويامن على حياته من غوائل التعصب وقد دعته الضرورة لابقائه والاعتناء به للفائدة التي توسمها فيه فكان ذلك كما توسمه ، وبقي بقصره مدة حياته أي حياة الباب وتعلم الايطالية واللتينية وكان يحسن الاصبانية والعبرانية ، وقد قام بترجمة ما يتعلق من رحلته بافرقيا الى الايطالية بطلب من هذا الباب .

أما ما يتعلق بحياته في ايطاليا فلم نقف منه على كثير وانما نعلم

أنه بعد موت صاحبه ليون العاشر سنة ١٥٢١ م . ٩٢٧ هـ . دخل تحت حماية الكردنال جيل دو فيطرب Gilles De Viterbe وكان يعلمه العربية وتولى مدة دراسة العربية بكلية مدينة بلونيا Bologne ولا نعرف مقدار هذه المدة وانما نعرف ان مدينة بلونيا كانت بها كلية عظيمة على ذلك العهد تدرس فيها العلوم الحديثة وان تلك الكلية كانت من اعظم دعائم النهضة الادبية الكبرى وكان بها المترجم سنة ٩٣٠ هـ حيث ختم قاموسه الطبي هناك في تلك السنة وكان بروما سنة ١٥٢٦ م . اي ٩٣٢ هـ . حيث ختم كتابه وصف افرقيا هناك في التاريخ المذكور كما يوجد ذلك في آخر كتابه .

هذا آخر مانجد له من الاثر بروما وغاية مانعلم عنه هناك انه كان محل تبجيل واحترام ولم يعامل قط معاملة الاسير بل معاملة العالم الذي ينشر العلم تاليفا وتدريسا متمسكا بدينه متسترا به محبا لوطنه متغنيا بمحاسنه .

ومن الراجح انه فارق تلك البلاد وآب الى وطنه او الى ارض افرقيا وكان ذلك حوالي سنة ١٥٢٨ م ٩٣٤ هـ حيث ان جان البير ويد مانسطار J.-A. Widmanstard ذهب الى بلونيا صحبة شارلكان عند تتويجه بها سنة ١٥٢٩ م . وبحث عنه فلم يجده وقد اعرب

عن تاسفه الكبير لفوات هذه الفرصة في مقدمة انجيل طبع سنة ١٥٥٥ م. وذكر ان المترجم آب الى تونس واعتنق الدين الاسلامي من جديد قال في هذه المقدمة : « بعد ما ضعفت في العصور الاخيرة معرفة علوم اليونان واصبحت كتب العرب المتعلقة بالفلسفة والطب والنجوم والكيمياء والسحر لايدرسها الا القليل منا اسست من جديد دراسة اللغة والآداب العربية بروما على عهد ليون العاشر الذي ظن ان في ذلك فائدة لانتشار الدين المسيحي وقد اتفق ان جان ليون إليبري بعد طرد فردنان (١) المسلمين (٢) كان في جملة من عبر الى افرقيا وانقطع بفاس لدرس الآداب العربية وبرع في ذلك ورحل في افرقيا وأسيا وعند رجوعه الى المغرب اسره مع اناس آخرين قرب جزيرة جربة القرصان النصارى ، ولاجل ما شوهد فيه من أثر العلم والنباهة وجه الى روما وقدم هدية للباب اليون العاشر فتمسح وعرف كيف ياخذ بلب الباب وقد اعطى دروسا في العربية للكردنال

---

(١) فردنان الخامس المعروف بالكتوليكي ملك قشتالة وارغون سنة (١٤٦٨ ١٥١٦ م.) تزوج بايزبيل ملكة قشتالة وهزم عرب الاندلس فاجتمع له كل الجزيرة تقريبا .

(٢) كان سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ. ١٤٩٢ م. وكان الاجلاء الاول للمسلمين عنها سنة ٩٠٤ هـ. فيكون عمر المترجم اذ ذاك ثلاث سنين . مولف

جيل دو فيطرب Gillles De Viterbe وكان ذوو الافكار السامية اذ ذاك لايعتنون الا بالآداب اللادينية ، وأصبح بعد موت جيستنيان وذهاب جان ليون اليبري الى تونس حيث رجع الى الدين الاسلامي لايحسن اللغة العربية من بين النصارى الا الكردنال المذكور ، وبعد ما حاز رتبة سنيور التي أورثه اياها « جروم » طلب مني في آخر حياته ان ارد على روما ومن هناك على افرقيا لانظر ليون وقد حاولت ذلك بدون جدوى في الصيف الماضي » . هذا غاية ما نعلم عن الحسن الوزان من حياته باروبا وآخر هذه الحياة ، وقد حاولت ان اجد له أثراً بتونس فلم اجد وقد اتفق من ترجموه الا من شذ على انه رجع الى بلاد الاسلام وهناك انتهى آخر خبره ويظهر من كلام ويد مانسطار أنه ورد عليه بافرقيا وحاول رده فلم ينجح .

هذا ملخص تاريخ حياته الملتقطة من كتابه ومن بعض من ترجموه فهو ولد بغرناطة وفتح عينه بفاس وكانت اذ ذاك زاهرة بالعلوم والمعارف ورحل رحلته الاولى ثم دخل معترك السياسة على حداثة سنه كما رأيت والاحوال اذ ذاك في خبط واضطراب والدولة الوطاسية تعالج آخر نزع من حياتها ونفوذ الزوايا يتزاحم في سائر الاطراف على اختلاف مشاربها وتنوع مذاهبها والدولة السعدية تتكون

بالجنوب المغربي ويشتد عصبها والعدو قد فاجأ البلاد على الشواطئ وهدد حياة الامة ووحدتها ، ذلك والنهضة الادبية والدينية تتوقد هنالك وقد خاض المترجم لجة هذه النهضة ولعب فيها دوره وأمكنه مع ذلك الدور ان يتجول بالمغرب تجول استطلاع ودرس فتولدت فيه فكرة الولوع بالجغرافية من ذلك الحين وقد نضجت هذه الفكرة لديه عند ارتحاله عن المغرب وقيامه بسياحته الثانية ووروده على اربا فاتسعت دائرة معلوماته الجغرافية واجتمع لديه علم جم وابحاث ممتعة تكونت منها كتابته التي ضاعت ولم يبق منها الا ما خصه بافرقيا ، ولا نعلم كثيرا عن حياته باربا سوى كتابته ونشره للعلم هناك ثم مالبث ان رجع الى دار الاسلام وهناك انقطع خبره .

عصره بالمغرب

لا أريد أن اسرد هنا قضايا ذلك العصر التاريخية سرداً ولا أن اجلب ما هو معلوم وموجود عند المؤرخين من تاريخ انقراض الدولة المرينية وقيام الدولة الوطاسية ومزاحمة الدولة السعدية لهذه ولا علل ذلك ولا نتائجه فذلك شان كفانا عناه المؤرخون ومن شاء ذلك فليرجع اليهم وانما انا آتيك من ذلك بما له علاقة بحياة المترجم على وجه

الاجمال ، وذلك في نظري هو مايلزم جلبه عند مايريد الباحث وضع الشخصية المبحوث فيها موضعها من عصرها . نشأ المترجم في آخر عهد الدولة الوطاسية وهى وارثة الدولة المرينية دولة العلم والعرفان والفن الرائق الفتان ، ما ذهبت الدولة المرينية من المغرب او من افرقيا الشمالية حتى تركت تلك البلاد تتدفق علما وقد رصعتها من البحر المحيط الى حدود طرابلس بالمدارس والمعاهد الدينية كما يرصع التاج الانيق بالدر والياقوت ، وأنفقت في ذلك الاموال الطائلة وأجرت على العلماء والادباء والصناع جرايات نشطت قرائحهم وشحذت اذهانهم فاستتب قدم العلم والفن هنالك ، وبقيت سوق المعارف نافقة قائمة على ساق ولو بعد انقراض الدولة نفسها وحلول الانشقاق . حيث وافق ذلك تقلص ظل العرب من الجزيرة الاندلسية وهجرة العلماء والادباء والفنانين الى المغرب وكثيرهم يقصد مدينة فاس قاعدة المملكة وقطب رحى الحركة الفكرية اذ ذاك ، وختم هذا الانسحاب بسقوط غرناطة وهو ابان مولد المترجم وهجرة عشيرته ، فاقبلت على فاس الجاليات الاندلسية التي سلبت من بلدها ومالها وشردت فانطلقت تنوح وتتحسر على وطنها الذاهب والدين الغريب ، وقد حملت العلوم والفنون معها الى مهجرها ، والمترجم وقبيله من ذلك القبيل ، فتمت الوراثة لفاس وآلت اليها شهرة

الجزيرة وسمعتها نهائيا واصبحت محشر هؤلاء الخلائق المهاجرين ومعرض آدابهم ومعارفهم ، هذا الى النهضة الدينية العلمية التي كانت قائمة على ساق بعد انحلال رابطة الدولة المرينية وانقسام السلطة المركزية تبثها الزوايا الطرقية او العلمية بالمغرب ناهضة بالامة تبعث فيها روح الدين والقومية وتحيي لديها العاطفة الوطنية لمكافحة العدو المفاجيء ، والدولة السعدية بالجنوب دولة العلم والدين تطل على المغرب وتطيل يدها للقبض على زمام السلطة وتوحيد القوى ، فما كاد العصر المريني ينقضي بفتور دولته حتى أذن مؤذن النهضة الجديدة وأصبح المغرب يتمخض بعصر جديد ، وأصبحت هذه النهضة الجديدة والحركات الوافرة التي نشأ في نشأتها الوزان ولعب دوره تحت نغماتها تعمل لابقاء آثار النهضة المرينية وتجديد حياة المغرب على اساسها المتين ، وقد ظهرت بعد بمظهرها الناضج الكامل من جهة الحماسة الدينية والروح الوطنية في وقعة وادي المخازن ومن جهة الرقة الادبية والتفوق العلمي والعبقرية الفنية ببلاط المنصور الذهبي سواء بين اليراع والقرطاس او تحت ريشة المخطط وشفرة النقاش ، هذا هو العصر الذي عاش الوزان في فجره ورأى نوره قد امتد في أفق حياة المغرب لامعا ، وتلك هي خلاصة النهضة التي باشر بنفسه اول خطواتها ، وهذه هي نفس الثقافة التي

تشبع من بواكرها ، فهو ابن عصره وبيئته نشأ في وسط يتدفق علما وعرفانا فتروى منه ما شاء وخرج الى المعترك تام الثقافة مهذب الذوق عالي الفكر بعيد الهمة ، وانطلق تحت نغمات الدعاية الدينية والوطنية يضرب المغرب وغير المغرب ظهرا لبطن ساعيا وراء ما تهيم به الافكار وتتمزق دونه النفوس اذ ذاك وراء نصرة الوطن واحياء العاطفة القومية والدينية ، فما ترك شبراً من ارض المغرب الا وطئه بدافعية ما كان يدفع كل مغربي اذ ذاك ، وآثار كل ذلك ظاهرة في كتابه وقد سلفت الاشارة اليها .

عصره بأروبا

أما عصره باروبا فهو عنفوان النهضة الكبرى التي انبعثت من ايطاليا ونشرت نورها على سائر أروبا ومن اعظم دعائم هذه النهضة البابا ليون العاشر صاحب المترجم ، بل عهده هو اكبر اساس بنيت عليه تلك النهضة وشخصيته هي اكبر شخصية برزت في ذلك العصر للتنشيط والمساعدة والعمل حتى سمي ذلك العصر باسمه ، ولا نجازف اذا قلنا أن صاحبنا الحسن الوزان الفاسي كان من جملة الايادي العاملة والقوات الفعالة لتحقيق رغائب الباب المذكور ولا نجازف اذا ارجعنا

اليه الفضل في جملة من انحاء النهضة الاروبية الكبرى وارجعنا هذا الفضل معه لفاس وجامتها العلمية بواسطته .

عاش الوزان باروبا في عصر النهضة . وما هو عصر النهضة ؟ عصر النهضة يطلق على الانبعاث الادبي والفني الذي طرأ على أُروبا الغربية والوسطى اواخر القرن الخامس عشر واثناء القرن بعده وكان له سببان رئيسيان : ظهور المؤلفات اليونانية بايطاليا وانتشار امر الطباعة ، ومعلوم أَن عدة مؤلفات يونانية لم تعرف باروبا الا بواسطة الترجمة العربية التي أخذت منها ايطاليا مباشرة او بواسطة اللغة اللتينية المترجمة عن العربية حيث أن الاصول اليونانية كان جلها قد ضاع او لم يعرف لذلك الحين ولم تبق الا الترجمة العربية او اللاتينية الماخوذة عن العربية (١) وبذلك يكون اعتناء اروبا بدرس العربية هو السبب الثالث لهذه النهضة .

معارفه

لاشك أن للبيئة تاثيراً على المعارف والافكار ، والرجل ابن بيئته ووسطه الذي عاش فيه ، فالوزان هو ابن الوسط الذي اشرنا اليه ، هو ابن النهضة العلمية الدينية التي اسسها المرينيون وجددتها حركة الزوايا

(١) راجع ما كتبه هويار في تاريخ العرب وما كتبه نالينو في كتاب الفلك عند العرب .

وهجرة الاندلسيين ، قرأ الوزان بالقرويين كما ذكر ذلك في كتابه فقرأ « الادب والمنطق » وقرأ كتاب النسفي في العقائد (١) ويوخذ من كلامه بطريق اللزوم انه قرأ البيان والكلام والفقه والحديث والادب والتاريخ والجغرافية وما الى ذلك ، وفسر كتاباً في البيان لرجل مترهب بوادي كيس ، وذكر عند تعليقه على حياة الغزالي أنه يحفظ بعض كتبه عن ظهر قلب ولكن تصعب عليه ترجمتها لدقة معانيها ، وقد الف في الفقه والدين والنحو والشعر والتاريخ والجغرافية والطب كما سنذكر ذلك ، وهو كما رأيت فارق المعهد القروي صغيراً ، فمدة تعلمه لم تكن طويلة ومع ذلك حصل من المعلومات على ما رفعه الى المقام الذي تبوأه .
تلك هى المعلومات التي أخذها عن الشيوخ ، أما المعلومات التي اكتسبها بمحض قريحته فهي المعلومات الجغرافية التي عول فيها على فكره وبحثه الخاص حتى نال منها ما جعله اكبر جغرافي لعهده ومن اكبر شيوخ أوروبا في ذلك الفن كما سنفصل ذلك ، نعم قد ساعده الحظ بان جعل مصيره لروما لما نكبه الدهر بالاسر فوجد مجالا واسعا للنشر وتربة خصيبة للبذر ، وجد النهضة هنالك في ريعانها والافكار متعطشة لكل جديد ورغبة ليون العاشر قطب رحى تلك الحركة مشتدة في اقتناء كل

---

(١) ص ٢١٢ ج ١

ما ياتيه من المدينة العربية العريقة فصلح نتاج افكاره واقبلت الناس على كتابه برغبة لم تعهد، واقتبس منه معاصروه وأقروا له بالفضل بل تعلموا منه كيف يصفون الوصف الفني الجغرافي وسنذكر تفاصيل ذلك عند الكلام على الكتاب .

وبالجملة فعبقرية هذا الرجل مما يستوقف النظر ويوجب الاعجاب ، ومعارفه اوسع من أن تجتمع لغير فلتات الطبيعة وهو على صغر سنه واتساع معلوماته واشتغاله بالبحث والتأليف كان يتقن لغته وآدابها اتقان أيمتها ويتقن معها الاصبانية (ذكر ذلك راميزيو) والعبرانية والايطالية واللتينية كما يدل عليه كتابه الطبي . إن هذا الرجل لمن فلتات الطبيعة وأحر به أن يذكر في صف أولائك الافراد الذين لا يرى الجيل منهم اكثر من فرد او فردين .

كان مؤرخاً : يدل على ذلك ما يدرجه في كتابه وصف افرقيا من التاريخ ويجري في ذلك مجرى المؤرخين الكبار من ذكر الوقائع مع اسبابها ونتائجها والاستنباط منها ، بعيد النظرا قوي الحجة ، وقد عنون بعضهم كتابه الجغرافي « بتاريخ ووصف افرقيا » وهو كذلك وقد الف كتابا آخر لم يصلنا سماه « مختصر تاريخ الاسلام » تكلم عنه كثيراً اثناء كتابه الجغرافي واحال عليه في تفصيل كثير من الوقائع ، والف كتابا

في تاريخ افرقيا تكلم عنه كذلك ولم يصلنا ، والف كتابا جمع فيه ما عثر عليه مكتوبا من الاشعار الوعظية والزهدية على الاضرحة والقبور بافريقيا الشمالية اشار اليه في كتابه ولم يبلغنا قال ، في صحيفة ١٧٢ من ج ٢ « وهو يقع في سفر صغير جمعته واهديته لاخي السلطان الحالي عند وفاة ابيه » وعلى هذا يكون الفه سنة ٩١٠ هـ. والف كتابا باللتينية ترجم فيه لثلاثين من كبار الفلاسفة والاطباء العرب ختمه بايطاليا بسنة ١٥٢٧ م. وذكر له بعض من ترجموه كتابا في تراجم علماء العرب طبع في جريش سنة ١٦٦٤ م .

وكان جغرافيا : الف كتابه « الجغرافية العامة » بالعربية وقد رآه بعض من ترجموا له قديما وضاع وبقي منه القسم الثالث الذي ترجمه هو الى الايطالية ، وقد بلغنا وهو موضوع بحثنا وهو كاف للدلالة على علو مرتبته في هذا الفن ، وسنرجع اليه بالتحليل والنقد لاظهار قيمته .

وكان فقيها : وقد الف كتابا في الفقه لم يصلنا اشار اليه في كتابه عند ذكر الفقه الاسلامي واصوله ، وثم ايضاً في كتابه الذي بين ايدينا ذكر تفصيل المذاهب الاربعة واصولها ومواضع انتشارها ذكر عالم بها ، ولما بلغ الى مذهب مالك قال : « وليراجع في ذلك كتابنا في العقائد والفقه الاسلامي » وأطرى مالكا هناك وانتصر لمذهبه ، فهو مالكي

المذهب . وذكر في غير ما موضع قضاءه في بعض النوازل بحضرة محمد القائم بأمر الله السعدي وذكر اسناد الفصل اليه في بعض النوازل عند تجوله ببعض الجهات بالمغرب ، والف كتابا في الاعياد الاسلامية (١).

وكان نحويا : قال في صحيفة ١٤٤ من ج ٢ : « ولي كتاب في النحو ذكرت في اول قسم منه اوزان الشعر فارجع اليه » ويظهر ان هذا الكتاب الفه باروبا حيث احال عليه .

وكان أديبا : يدل لادبه أسلوبه السلس المتين الذي يلوح وراء عبارته ، وقد الف كتابا في الشعر ضاع ، والف مدة اقامته بايطاليا قاموسه الطبي العربي العبراني اللاتيني وقد نقلت آخر كلمة منه اول هذا البحث وبعض صور منه ، ويدل هذا القاموس لمشاركته في الطب ايضا وفضله على اروبا فيه .

وكان شاعرا : ذكر في كتابه الجغرافي في الكتاب الثاني أنه لما كان مع عمه قرب درعة استدعاهما قائد عظيم هناك فذهب اليه هو وقدم له قصيدة في شكره على دعوته الى آخر ما ذكر هناك .

مشيخته

لانعرف للوزان شيخاً معيناً وانما نعرف انه قال في ص ٨٧ من

(١) ص ١٢٧ ج ٢ .

ج ٢ وفي غيرها أن اكثر معارفه تزودها من فاس ، ونعرف أن
شيوخ القرويين واقطاب العلم اذ ذاك هم افراد كثيرون كابن غازي
محمد بن احمد العثماني الفقيه الخطيب الاستاذ الرياضي المشارك المحدث صاحب
التآليف القيمة توفي سنة ٩٢٠ هـ . واحمد بن يحيي الونشريسي الفقيه
الحافظ المفتي صاحب المعيار المتوفي سنة ٩١٤ هـ . والزقاق احمد بن
علي بن قاسم الفقيه العالم المؤلف توفي سنة ٩٣٢ هـ. وعلي بن قاسم
الزقاق الخطيب الفقيه صاحب النظم المشهور توفي سنة ٩١٢ هـ. واحمد
بن محمد الحباك الاستاذ النحوي توفي سنة ٩٣٨ هـ ومحمد بن جمعة المغراوي
صاحب الاسناد العالي المتوفي سنة ٩٣٠ هـ. ومحمد بن أبي جمعة الهبطي
الاستاذ المتوفي سنة ٩٣٠ هـ. ومحمد بن محمد بن احمد بن غازي ولد ابن غازي
السابق كان استاذا اماما في النحو خطيبا توفي سنة ٩٤٣ هـ. واحمد الغزاني
المشارك الاستاذ الحيسوبي الرياضي الفلكي المتوفي سنة ٩٢٠ هـ. وابراهيم
المصمودي الحيسوبي الرياضي أخذ عنه عبد الحق المصمودي وتوفي سنة
١٣٩ هـ. قال ابن القاضي : « كان أمير المومنين في الفرائض والحساب »
وابي زيد عبد الرحمن بن علي سقين السفياني الفقيه الخطيب المحدث الراوية
الرحالة الكبير توفي سنة ٩٥٦ هـ . وابي عبد الله محمد اليسيتني العلامة
المفتي المشارك الرحالة المتكلم توفي سنة ٩٥٩ هـ. وعبد الواحد بن احمد

الونشريسي الامام الفقيه الاصولي الاديب القاضي المفتي توفي سنة ٩٥٥ هـ. وابو الحسن علي ابن هارون المطغري الامام الفقيه المفتي الحافظ الخطيب توفي سنة ٩٥١ هـ. وابي عبد الله محمد بن عبد الله اليفرني القاضي الامام المفتي جد بيت بني القاضي توفي سنة ٩١٧ هـ.

أفكاره

هي افكار كبار الفلاسفة الذين يرتفعون عن مستوى وسطهم ويطلون على العالم من اعلى فينظرون الى اخلاقه وعوائده نظر المنتقد الحر المصيب، وينصتون الى حركات القلوب وهواجس الافكار فيصورون منها صورا ناطقة مؤثرة، كان الوزان فيلسوفا نقادا بعيدا عن الغرض، عجم عود الدهر ومارس انواعا من اخلاق البشر فاتسع فكره، وصح نظره، وقويت حجته فاصاب في احكامه. تراه يحلل اخلاق الامم التي عرفها وعوائد البلاد التي دخلها تحليل فيلسوف اجتماعي اخلاقي واثق بنفسه مطمئن الى حكمه وتراه ينظر الى الوقائع التي حضرها والاحوال السياسية التي تقلب فيها نظرالفلسوف السياسي المحنك.

عرض في كتابه كثيراً من اخلاق الامم الافريقية، وعوائدها، ومجتمعها، وتركيب حكوماتها، وسير ترقيها وتقهقرها، فوصف عيش كل

أمة داخل منازلها وخارجها وكيفية اكلها ونظامه ، ويقابل ذلك بما يعيش عليه الايطاليون بروما ثم يصف مثلا لباس الافريقيين ويقابله بلباس الاوربيين ويإتي في كل ذلك بما يستحسنه فكره وما يستهجنه ، ثم يعرج مثلا على ماهو متصل باخلاق العامة من الخرافات ويفصلها تفصيل الناقد المحلل ، ويذكر لك تداويهم باسترضاء الجنون بالوان الاثواب وانواع البخور وترددهم على الكهنة والعرافين مهما الم حادث ، ويصف لك الطوائف الضالة في وقته ومصائب طائفة العبيد « كناوة » التي يلجأ اليها كل مريض ومصاب ، الى غير ذلك مما يشبه تماما ما هو موجود الآن ـ فالناس هم الناس والاخلاق هي الاخلاق ـ وكثيراً ما يحمل حملة البطل على كرامات المشعوذين ويكر باللوم المر على اتباعهم ويصف لك كثيراً ممن رأى منهم وصف الناقد البصير ويتأسف على انتشار نفوذهم الوهمي بسائر افرقيا وتمكنه من افكار العامة ، فيذكر انه شاهد بنواحي تازا رجلا يدعي الولاية والكرامة والناس مكبون عليه فاختبره فوجده خرافا وتاسف على اعتقاد العامة فيه ، وشاهد بمصر رجلا مشعوذا او مختلا زنى بامرأة على قارعة الطريق فاجتمع الناس اليه ونسبو ذلك منه الى الكرامة ، وأتى بامثال هذه الجزئيات في غير مصر من بلاد افريقيا وما هو بالسودان من الخرافات التي

تتسرب الى باقي البلاد من هناك ، واغتم لذلك مبينا سوء عقباه على الافكار متحسراً تحسر عارف بنتائجه العقيمة .

ويكفي في معرفة قيمته كفيلسوف سياسي تتبع ما أورده من الوقائع التي خاضها والمشاكل السياسية التي شقها ذاكراً في كل ذلك اسبابه ونتائجه .

أما افكاره التاريخية والجغرافية فهي افكار أيمة هذين الفنين وقد تقدمت الاشارة الى قيمة استطراداته التاريخية في كتابه والى مقدمة كتابه في اصول الجغرافية أو جغرافية افريقيا العامة .

وستتم لك معرفة مقدار مواهبه الجغرافية بما سنورده في تحليل كتابه « وصف افريقيا » .



القسم الثاني

آثاره

كتاب وصف افريقيا

وصلنا من آثار الوزان كتابه « وصف افريقيا » ويظهر من سياق كلامه ومن صنيعه أنه كان يكتب ما شاهده في رحلاته حتى جمع من ذلك جغرافية وصفته وكانت معه هذه الكتابة لما اسر . ومن الجائز أنه زاد عليها ما شاهده باروبا ، ثم إن اليون العاشر طلب منه أن يترجم ذلك الى الايطالية فبدأ بافريقيا ، ويلوح أنه كان عند الترجمة يزيد معلومات زائدة على المشاهدات التي كانت مكتوبة عنده كالاحوال التاريخية التي كان يدرجها عند الكلام على كل قسم ، وكالمقابلات بين شؤون افريقيا واروبا ، وقد اعتذر هو نفسه عما يقع له من الاغلاط التاريخية حيث طال العهد بعوادها نحو عشر سنين ، قال كلومي Colomiés « واصل كتابه يقال إنه رؤي بمكتبة بينلي Pinelli بايطاليا باللغة العربية » وقد ذكر بعض المؤرخين أن هذه الخزانة حملت في ثلاثة مراكب أخذ القرصان منها مركباً وغرقوا الكتب التي كانت فيه فلعله غرق هناك اذ لم يظهر بعد . اما القسم الذي وصلنا من الكتاب فقد الفه صاحبه بالعربية وترجمه الى الايطالية وانتهى منه سنة ٩٣٢ هـ ١٥٢٦ م وقد عثر على هذه الترجمة راميزيو Ramusio نحو سنة ١٥٤٩ م. وطبعها سنة ١٥٥٠ م.

بايطاليا وصدرها بمقدمة له ثم اعيد الطبع بالايطالية عدة مرات سنة ١٥٥٤ ١٥٦٣ ـ ١٥٨٨ ـ ١٦٠٦ ـ ١٦١٣ ـ ١٨٣٠ م. وبعد ذلك ، وترجم الكتاب الى اللاتينية عن طبعة سنة ١٥٥٤ فلوريان Flaurian وطبعه بايطاليا . وترجمه الى الفرنسية جان طمبورال Jean Temporal عن طبعتي سنة ١٥٥٠ و١٥٥٤م الايطاليتين ترجمة جيدة صدرها بمقدمة وجيزة وطبعها سنة ١٥٥٦ بمدينة ليون Lyon ثم اعيد طبعها في مدينة انفـير Anvers في السنة نفسها وفي مدينة ليد Leyde سنة ١٥٦٤ م. وفي باريز سنة ١٨٣٠ م. ثم سنة ١٨٩٥ م. بتصحيح وتعليق شيفير Ch. Schefer وهذه هي النسخة الموخودة الآن بلغة طمبورال اي لغة القرن السادس عشر وهي لغة لايعرفها الا من درس اللغة الفرنسية القديمة ، والكتاب يقع في اجزاء ثـلاثـة ضخام عـدد اوراق الواحد منها من ٣٠٠ الى ٤٠٠ وطبع عدة طبعات باللتينية بفرنسا وهلاندا سنة ١٦٦٥ وانجلترة سنـة ١٦٠٠ و ١٨٩٦ م. وترجم الى الالمانية وطبع هناك عدة طبعات وترجم الى لغات اخرى .

هذا كله يدل على قيمة الكتاب وقدر الاهتمام به ومقدار مـا اقتبس منه ، زد على ذلك أن اول كتاب جغرافي فني يصح أن يطلق عليه هذا الاسم انما ظهر اواسط القرن السادس عشر بالمانيا ومن

هناك انتشر ، وكتاب الوزان عرف قبل ذلك واقتبس منه قبل طبعه المشار اليه فهو اذن اول كتاب في جغرافي ظهر باروبا وهذا الكتاب كان في طليعة الكتب التي ابتدأت بها المطبعة بفرنسا ، فاهميته وتاثيره على النهضة الاروبية مما لاشك فيه .

مادة الكتاب وكيفية استمداد المؤلف

كان الوزان متمكنا من علم التاليف متضلعا من فن الادب ينطق بذلك اسلوبه الرائق وراء الترجمة ، ويظهر ذلك في تقسيم الكتاب وتفصيل مواد موضوعاته . أما مواد كتابه فترجع الى نوعين مشاهدة ونقل : أما المشاهدة فهي التي اقتناها اثناء رحلاته وهي التي ورد بها على روما مكتوبة ، واما المنقولة فهي التي الحقها عند تحرير هذا الكتاب . نعم من سوء الحظ أنه عند تاليفه له بروما كان قد بعد العهد بينه وبين كتب الجغرافية والتاريخ المتعلقة بافرقيا بنحو عشر سنين كما اشار هو الى ذلك ومن اجل ذلك لاتجد له نقلا باللفظ الا قليلا . وتجد بعض غلطات يحتوي عليها كتابه وهي غلطات ترجع الى خيانة ذاكرته لا الى عدم امانته ، وكان حفظه مع ذلك عظيما ، لكن بعده عن المواد الذي كان يتحسر عليه عند كتابته قد جعل لتاليفه ميزة خاصة تميزه عن

غالب جغرافي العرب ، فانك تجده في كتابه مطلق الحرية معتمدا على نفسه مستمدا من عبقريته مستمطرا لقريحته فلا يتكلم الا بلسانه ولا يخط الا ببنانه وهذه الحرية المطلقة هي التي اعلت حقا قيمة كتابه ، وهو مع ما اوقعته فيه الاقدار من بعد المواد حتى كان تاليفه شخصيا وما طبع عليه من حرية الفكر والاستقلال في النظر فانه لم ينج في بعض الاحيان من تقليد آبائه في الفن على بعدهم عنه كالبكري وابن خلدون وقد نقل عنهما قضايا على علتها ، الا ان ذلك في جنب حريته النقدية وافكاره التجديدية ليس بشيء ينقص كتابه او يحط من قيمته .

وقد ذكر عدة اسماء للمؤلفين الذين استند اليهم وهم جم غفير من الجغرافيين والمؤرخين والادباء وغيرهم من العرب وغير العرب قبله.

ونذكر على سبيل الاستطراد اسماء من استمد منهم الوزان من العرب وغير العرب او ورد ذكرهم في كتابه لاستشهاد او غيره وان كان استمداده من غير العرب كان قليلا ومعرفته بهم مثل ذلك غير ان هذا الجهل قد افلته من كثير من اغلاطهم ووساويسهم ولنبدأ بالمؤرخين والجغرافيين من العرب :

البكري ابو عبيد الجغرافي الاديب المؤرخ الاندلسي

ابو نعيم الاصفهاني المؤرخ

اثير الدين الابهاري المؤرخ

ابن عمر الكلبي مؤرخ

الشريف الادريسي الجغرافي أبو الجغرافية الحديثة وصاحب نزهة المشتاق

التادلي المؤرخ المغربي صاحب حياة الشيخ ابي يعزى

ابن الجوزي مؤرخ بغداد

عبد الرحمن ابن خلدون المؤرخ الفيلسوف مبتكر فلسفة التاريخ

ابن خلكان المؤرخ الكبير صاحب الوفيات

ابن كثير المؤرخ الشهير

ابن الكاتب الغرناطي المؤرخ

ابن الحسن الاشبيلي المؤرخ

ابن فضل الله العمري المورخ الجغرافي صاحب الموسوعة المشهورة

ابن جلجل سليمان بن حسن المؤرخ الفيلسوف

ابن الابار ابو عبد الله المؤرخ

ابن بشكوال بن عبد المالك المؤرخ

ابن حيان المؤرخ

ابن الرقيق المؤرخ

مزندراني مؤرخ

المسعودي المؤرخ الجغرافي صاحب اخبار الزمن ومروج الذهب

أما غير هؤلاء ممن ورد ذكرهم في كتابه أو استمد منهم فهم :

ابن رشد القاضي الفيلسوف الاكبر

هارون بن سنطول العالم اليهودي وزير بني وطاس بفاس

ابن ابي الدنيا

ابو بحر بن شلسون الفيلسوف

عبد الله بن البيطار النباتي الطبيب الفيلسوف

ابو حفص عمر بن الفارض الشاعر الصوفي

ابو الحسن بن حيدور الفلكي

ابن الصائغ الاديب احد ايمة حلب

ابن سيناء الفيلسوف الطبيب الشيخ الرئيس صاحب القانون

ابن الطفيل محمد بن عبد المالك الاشبيلي الفيلسوف الطبيب

اسحاق بن عمران الطبيب القيرواني

جهنا بن مزياك الفيلسوف

ابن عمران موسى بن ميمون الفيلسوف اليهودي

عبد المالك المرجاني الاديب

مالك ابن انس امام المذهب وامام دار الهجرة

مزياك المرداني الفيلسوف

المغربي الغرناطي الكيماوي

النسفي المتكلم المؤلف في اصول الدين

ابن سهل الاسرائيلي الاندلسي

ابو بكر الباقلاني الفيلسوف القاضي

شرف الدين البوني الصوفي

الدباغ شاعر مالقي

الجرجاني الاديب المتفنن واضع علم البيان

ابو حامد الغزالي الفيلسوف الصوفي حجة الاسلام

الحارث بن اسد البصري المتكلم

الحسن البصري المحدث

عمران ابن اسحاق من علماء اليهود بطليطلة

ابو الحسن الاشعري المتكلم صاحب مذهب الاشعرية

ابو ناجم السهراوردي الفيلسوف

ابو الحسن الصوفي الفيلسوف الفلكي

الطوسي نصير الدين الفيلسوف الفلكي المنجم

التفتزاني الخراساني الفيلسوف

الزهراوي الطبيب

ابو نصر الفارابي الفيلسوف امام فلاسفة الاسلام

جابر بن حيان الكيماوي الاكبر

ابو بكر الرازي الطبيب أحد أيمة الطب والفلسفة

الصفدي الشاعر

الطبراني احد الفلاسفة

ابو الحسن بن التلميذ الفيلسوف الكبير المعروف بمبادئه

الطغرائي الوزير الشاعر صاحب لامية العجم

سحنون صاحب المدونة ومرجع افريقيا في الفقه

ابن العوام صاحب كتاب في الزرعة

اما غير العرب فنجد ذكر :

تيت ليف وبلين وبطليموس Tite-Live, Pline, Ptolémie

تقسيم الكتاب

قسم الوزان تاليفه «وصف افريقيا» الى تسعة كتب تقع في ثلاثة اجزاء وخص الكتاب الاول بدرس جغرافية افريقيا العامة وجغرافيتها

الانسانية والطبيعية والطقسية وما يتفرع عن ذلك ، وخص الكتاب التاسع بدرس الانهار ومجاري المياه وسائر محصولات البلاد الطبيعية وجعل مابين ذلك من باقي الكتاب خاصا بدراسة النواحي ، وقسم دراسة كل ناحية الى وصف المدن ثم البوادي ، وبفضل هذا التقسيم النظامي الواضح يمكننا أن ننسب كتابه الى ناحية خاصة من نواحي الجغرافية التي تعاطاها العرب ، فكتابه اذن ينبغي أن يلحق بقسم المسالك والممالك من علم الجغرافية ويبعد عن قسم الرحلات وعن قسم جغرافية العروض المستند الى التنجيم والحساب ، وعلم المسالك والممالك هو فن العرب اخترعوه لانفسهم وأوجدته لهم حاجياتهم فبرعوا فيه وقد فصلت ذلك في كتابي « الجغرافية واطوارها » .

وقد جرى الوزان في صنيعه على أن يبين لنا مسافات الطرق بالاميال لابدرجات الفلك ويعرج على سائر المدن ولو كانت خارجة عن الطرق الكبرى مع بيان الاحوال الاجتماعية والسياسية لكل قطر كما أنه لم يستند في تقسيماته الى المناطق الطقسية كما فعل الادريسي وقبله بطليموس بل الى المناطق الطبيعية فجاء كتابه عبارة عن جغرافية مفصلة محررة لافريقيا مفيدة في معرفة احوال البلاد على عهد المؤلف معينة على تطبيق الحالي على الماضي مشجعة على البحث وراء الآثار القديمة لمن اراد ذلك .

وقد أبرز كتابه على حسب ما كان يتطلبه الذوق الجديد باروبا اذ ذاك ، وهو حسن الترتيب والمساواة في العبارة دون ايجاز ولا اطناب ، ولذلك اقبلت أروبا عليه واستفادت منه . ولم ينس الوزان مع ذلك شخصيته العربية فقد امد كتابه بسعة المادة وقتل الموضوع بحثا وتقييداً للشوارد مما عرف به علماء العرب ، فنراه مثلا في حالة اسره بنابل عند وروده على ايطاليا لم يغفل عن أن يدرج في مذكرته وقعة بادس وغير هذا كثير ، فهو اذن في كتابه عربي المادة أروبوي الاسلوب .

وكل كتابه مع ذلك مطبوع بشخصيته الخاصة متأثر باطوار حياته . عرفناه عدلا مقيدا بالمستشفى الكبير بفاس على صغر سنه مدة سنتين ثم رأيناه سفيراً في مهمات الحكومة شابا ، فهو دخل معترك الحياة صغيراً أصغر من ابن خلدون مثلا الذي توظف لاول مرة كاتبا وله عشرون سنة ، فهو قد مارس الضبط والتقييد والبحث عن عدد سكان المدن او القرى وتقدير المكوس والبحث عن مسافات الطرق ومعرفة المناطق السياسية والحدود الحكومية منذ صغره ، ولم يتعود كتابة « تقريب او نحو » عند كتابة الرسميات التي كان مطوقا بها بل تعود كتابة « وعددهم كذا ، وقيمته كذا ، والمجموع كذا ، » كل ذلك انطبع كتابه بطابعه ، فلا يذكر عدداً او مسافة او قدراً الا مع الضبط والتحرير ، وذلك ما جعل ايضاً

لكتابه قيمته الخاصة حتى افاد حقا ، كما أن الضبط الموجود في كتاب ابن خلدون هو نتيجة ما مارسه من الضبط في كتابة الرسميات منذ صغره بتوظيفه بالديوان وهو الذي أعلى قيمة كتابه .

ومما يشهد بشدة تحري الوزان أننا نجد كثيراً من اوصافه وبياناته شاخصة الى اليوم ، نجد وصفه لفاس مثلا ناطقا بالتثبت والتحري وصدق الحكم وصحة النظر ، فلفي عدد الحوانيت مثلا بها ونظام الازقة وترتيب الحكومة واخلاق الناس وداخلية الدور كل ذلك أو أثره شاخص ينطق بصحة الملاحظة وصدق البيان .

نعم غلبت عليه في بعض الاحيان البيئة الاصلية فأخذ يجلب لبعض المناسبات بعض حكايات او نكت على عادة مؤلفي العرب ، الا أنك اذا أمعنت النظر وجدت لتلك الحكايات مناسبة تبرر جلبها وربما أتى بها ليدرج تحتها اعتبار الناس لقيمته العلمية او الادبية او غير ذلك مما يتعلق بشخصيته ، وربما قلد في ذلك ايضا مؤرخي الرومان واليونان وقد عرف بعضهم كما تقدم . وهو وان كان جلب على هامش الجزئيات الجغرافية ما يرفع شخصيته فقد استفدنا نحن من وراء ذلك كثيراً من حياته الشخصية وكثيراً من احوال البلاد الجغرافية التاريخية على عهده .

الجغرافية العامة

خص الكتاب الاول بجغرافية افريقيا العامة وجعله كالمقدمة لكتابه فجاء عبارة عن فلسفة جغرافية تشبه مقدمة ابن خلدون في التاريخ، تعرض في هذه المقدمة الى انحاء شتى من الجغرافية العامة وكر على ذلك بالتفصيل والتطبيق اثناء كلامه على الجغرافية التفصيلية وأتمه بخاتمة في الانهار والمحصولات الطبيعية، ولنلق نظرة عامة على نظريته فيما يتعلق بالجغرافية العامة سواء في مقدمته او اثناء التقسيمات .

الجغرافية الطبيعية العامة

المناطق الطبيعية : سلك الوزان مسلكا جديدا لم يسبق اليه في تقسيم افريقيا الى مناطق طبيعية خاصة، وهذا التقسيم يرجع الى اعتبارات نباتية واقتصادية وهي اليق واصدق من تقسيمات سلفه الذين يجعلون التقسيم راجعاً الى المناطق الطقسية او درجات الفلك.

وقد قسم افريقيا الى مناطق اربعة طبيعية : بلاد البربر شمال الاطلس، وبلاد الجريد جنوب الاطلس، وبلاد الصحراء، ثم بلاد السودان. ثم قسم كل منطقة الى اقسام وكلها ترجع الى ملاحظات طبيعية كما أنها ترجع

الى تقسيمات ادارية ، وكلا الامرين يستفاد من كلامه فالتقسيم الاداري اذن كان اذ ذاك يقلد الفروق الطبيعية .

الجبال : سلك في تقسيم الجبال مسلك من تقدمه من جغرافي العرب في بيان بعض الارتفاعات ومواقع الثلوج والمسالك .

التراب : لم يدرس الوزان اتربة افريقيا درسا جيلوجيا وانما كثيراً ما يذكر لك ان أرض الريف مثلا صالحة للزراعة لخصبها ، ويذكر لك انواعا من الحجارة بجانب بعض المدن تصلح للبناء ، ويذكر انواعا من الحجارة سوداء في رأس الاطلس وحجارة الجبس قرب فاس والرخام جنوب مراكش والملح المعدني بناحية فاس .

الجغرافية الطقسية

تجد هذا النوع من الجغرافية مبينا باجلى بيان في كتاب الوزان مع الاسباب والنتائج ، فتراه يذكر أن جبال الريف والاطلس مكسوة بالغابات ، ومن هذه الغابات الكثيفة تتسرب عيون منهمرة تجتمع فتصير اودية دافقة ، والسهول غالبها عارية من الغابات ، واشار الى تاثير الطقس في ذلك .

أما تحرير الفصول السنوية فقد جلبه بتدقيق وهو ينطبق على

الاحوال الطقسية المقررة اليوم ، واذا ذكر الفصل اتبعه بعوائد الفلاحين وبعض الملاحظات المجربة فيه ، ويذكر لك مبدأ الحرارة في كل ناحية ومبدأ المطر واوقات انواع الزراعات ، الى غير ذلك من الملاحظات المفيدة كتأثير انواع الرياح على مقدار المطر ببعض النواحي وتاثير تقدم الفصول وتاخرها على زراعة كل ناحية .

المياه : جعل الوزان لمجاري المياه بافريقيا درسا خاصا عدها فيه عداً وذكر خصائص كل منها وإبان زيادتها ونقصانها والوانها وما يستفاد من كل منها وتأثير الطقوس في ذاك .

تاثير الطقس على الحياة : ذكر كثيراً من الامراض الناشئة عن الطقوس ، ذكر مثلا أن بلاد البربر اذا كثر فيها المطر اصيبت بكثرة الحمى ، ويذكر كثيراً من الامراض الخاصة ببعض النواحى ولها أسباب طبيعة ككثرة المروج وكثرة الاوساخ الناشئة عن طبيعة الارض وخصائص مائية .

تاثيره على الاعمار : يذكر أن العمر الطبيعي في البلاد البربرية يتراوح من ٦٥ الى ٧٠ سنة في السهول ، ويبلغ في الجبال الى ٨٠ بل والمائة ، ويبلغ في بلاد النوميديا ٦٠ وفي الليبيا والسودان اقل من ذلك .

تاثيره على الاخلاق والعوائد : درس الوزان الاخلاق والعوائد على

حسب الاقسام الطقسية التي قسم اليها البلاد ، فاذا ذكر بلاد البربر ذكر لاهلها اخلاق وعوائد الامم البالغة النهاية في التمدن والرقي من مستحسنها ومستهجنها ، فهم متدينون مع اوهام في افكارهم ، هم تجار بطبيعتهم ، سرعان ما تتبدل افكارهم ، اصحاب مشاجرة وعناد ومكر وحسد .

ويذكر أهل نوميديا فيذكر أنهم اقل ادبا واضعف معارفاً ، ولكنهم أكثر احتيالا وشجاعة ، ثم يذكر اهل الصحراء فيذكر لهم الكرم والشجاعة والبساطة ، ويذكر اهل السودان فيذكر لهم الانبساط وعدم التفكر في الحياة ، فكأنه يرجع كل هذه الاخلاق والعوائد الى تاثير الطبيعة الطقسية .

الجغرافية الاقتصادية والاجتماعية

الثروة الطبيعة ـ المعادن : ذكر في كتابه عدة معادن بافريقيا ذهبية وفضية ونحاسية وغيرها وكلها عثر عليها اليوم ، ومنها ما نفد ومنها ما هو مستثمر الآن وعقد لها فصلا خاصاً في الخاتمة .

المناطق النباتية والزراعية : لم يذكر في الغالب ناحية الا ذكر أنواع نباتاتها وأنواع محصولاتها الزراعية ، وعاد الى ذلك في الخاتمة .

المناطق الحيوانية : يذكر لكل ناحية مايصلح بها من انواع المواشي والبقر ، ثم يذكر مابها من الصيد والحيوانات الوحشية وانواع الطيور ثم انواع الحيتان والحيوانات المائية النهرية والبحرية .

المحصولات الطبيعية والصناعية : يذكر كثيراً من المحصولات الطبيعية والمصنوعات التي يعمر بها سوق البلاد ، فيذكر مثلا أن بلاد الريف كثيرة الاعناب تخرجه الى الخارج وتخرج الشمع والحوت والملح وخشب البناء ويصنع من دومها المكانس ، ثم يذكر أن فاسا كثيرة الزيوت والفواكه والثمار والحبوب ، وتختص بالصناعات ، وتجتمع في اسواقها محصولات كثيرة من البلاد المجاورة لها كبلاد الريف والغرب والحوز ، وتجتمع اليها منسوجات الجبال حولها . وهكذا يذكر في كل ناحية او بلد محصولاتها الطبيعية والصناعية وكيفية تبادلها .

طرق المواصلة : اهتم كثيراً بذكر طرق المواصلات والمسافات حتى ان جغرافيته لأحق بان تلحق بالنوع الذي هو المسالك والممالك ، وقد اتخذ كثير من اصحاب الخرائط بعده كتابه قدوة لتخطيط المسافات ومسالك الطرق ، وصححت عليه سائر خرائط افريقيا المصنوعة قبله التي أصبحت بفضل ضبطه قريبة من الخرائط الفنية الموضوعة حديثاً بعد معرفة هذه البلاد .

أنواع السكان : يذكر كل ناحية ونوع سكانها ، وهل هم اصحاب نجعة ام نصف نجعة ام حضريون ، ويذكر الاسباب التي جعلتهم كذلك .

المعيشة واللباس : يذكر لكل ناحية مأكلها وملبسها . فبرابرة الاطلس ياكلون خبز الشعير ويشربون الحريرة بالزيت في الشتاء ، وباللبن والسمن في الصيف ، والسميذ والعسل في وسط النهار واللحم في الليل ، وأهل فاس يشربون الحريرة في الصباح مع الخبز والفواكه ، وفي وسط النهار اللحم والخضر والخبز ، وفي المساء الخبز والبطيخ أو العنب أو الحليب ويزاد الكسكس في الشتاء ، والفقراء لا ياكلون اللحم الطري اكثر من مرتين في الاسبوع ويعوضونه بالخليع في باقي الايام (١) ، ثم يذكر اللباس فيصف لباس كل قوم باجلى بيان .

أنواع المدنيات : يذكر لكل أمة نوع تمدنها وكيفية حضارتها وقوانينها وعوائدها التي تمشى عليها ومعتقداتها ، ويذكر معاهدها الدينية والعلمية ومعارفها وأميالها .

الجغرافية الانسانية والسياسية

يذكر لكل أرض جنس الامم التي تسكنها ويذكر أصول هذه الامم ، ثم يذكر تنقلاتها واختلاط بعضها ببعض وأسباب ذلك وتاريخ وقوعه ،

---

(١) القديد المصبر .

ومن ذلك ما تجده يفصله عن دخول العرب الى افريقيا الشمالية وتفرعهم وتنقلاتهم وأسباب ذلك وتاريخه بتفصيل ، ويذكر عن البربر مثل ذلك ، وربما ذكر أعداداً للانفس في البوادي والحواضر متمسكا في ذلك بالتحري .

ثم يذكر الحالة الحكومية في كل ناحية ، والتقسيمات السياسية بتفصيل ممتع ، ومن افيد ما عنده ذكر كيفية تشكيل الحكومة في المغرب ونظامها وأساليب سيرها وتمكين نفوذها ، وربما جلب تاريخ التقسيمات السياسية وأطوارها في كل ناحية وأسبابها ، ثم يذكر نظام ضرب الضرائب وكيفية استخلاصها وربما جلب تواريخ ذلك وأطواره .



مثال من الجغرافية التقسيمية

تقسيم المغرب

قسم الوزان المغرب الى ثلاثة اقسام : مغرب جنوبي او ناحية مراكش ، ومغرب شمالي او ناحية فاس ، وقسم كل قسم منها الى سبع دوائر . وجمع في القسم الثالث درعة وسجلماسة ونوميديا وهي ما يقع شرق سجلماسة من البلاد .

بدأ بالمغرب الجنوبي في الجزء الاول وخصه بنحو نصفه وقسمه الى الدوائر الآتية :

١ ـ حاحة : يحدها البحر المحيط غربا ، والاطلس جنوبا ، ووادي السفول (١) الذي يصب في نهر تنسيفت شرقا .

٢ ـ السوس الاقصى : يقع جنوب حاحة ويحول بينهما الاطلس ، يحده المحيط غربا ، والصحراء جنوبا ، والاطلس وحاحة شمالا .

٣ ـ دائرة مراكش : يحدها جبل نفيسة غربا ، وحديماي ؟ شرقا ، ثم ملتقى اسف المال مع تنسيفت .

---

(١) لعله يريد بوادي السفول وادي اسف المال .

٤ ـ كزولة : يحدها السوس والاطلس ، وتحدها حاحة من ناحية الشرق .

٥ ـ ذكالة : يحدها جنوبا تنسيفت ، وغربا المحيط ، وشرقا وادي العبيد ، وشمالا أم الربيع .

٦ ـ هسكورة · تحدها دكالة من الجهة الغربية ، ووادي العبيد من الجهة الشمالية وهو الحد بين هسكورة وتادلة كما أن دكالة تحول بين تادلة والمحيط .

٧ ـ تادلة : يحدها شرقا وادي سرو أحد فروع أم الربيع ، وشمالا أم الربيع ، وجنوبا الاطلس .

أما ناحية فاس فقد خص لها الجزء الثاني كله ، وجعلها تمتد ما بين نهر أم الربيع ، والمحيط ، والبحر المتوسط ، وملوية وما وراء الاطلس ، وقسمها الى سبع دوائر وهي :

١ ـ تامسنا (١) : جعلها تمتد من نهر أم الربيع جنوبا الى نهر أبي رقراق شمالا ، ومن الاطلس شرقا الى المحيط غربا .

٢ ـ دائرة فاس الخاصة : من نهر أبي رقراق غربا ، الى ايناون

(١) وهي بلاد الشاويه .

شرقا ، ومن نهر سبو شمالا الى الاطلس جنوبا ، ومدنها سلا ، وفيض الله ، ومعمورة ، وتيفلت ، ومكناس الخ .

٣ ـ ازغار : يحده البحر المحيط غربا ، ونهر أبي رقراق جنوبا ، وجبال غمارة شمالا ، ومنخفض جبل زرهون وزالغ ووادي أبي النصر شرقا (١) .

٤ ـ الهبط : يحده وادي ورغة جنوبا ، ومروج ازغار والبحر المحيط غربا ، وبوغاز طارق شمالا ، وحدود الريف شرقا .

٥ ـ الريف : يحده بوغاز طارق غربا ، ووادي النكور شرقا ، والبحر المتوسط شمالا ، ووادي ورغة جنوبا .

٦ ـ الكارة : يحدها وادي مليلو غربا ، ووادي ملوية شرقا ، وحدود الصحراء جنوبا ، والبحر المتوسط شمالا .

٧ ـ الحوز : يحده وادي زا شرقا ، ووادي كرنيكرا (٢) غربا ، وحدود دائرة فاس شمالا ، وحدود الصحراء جنوبا ، وهذا القسم يبلغ نحو ثلث ناحية فاس باجمعها (وهذا الاسم اي حوز فاس لم يذكره بهذا الاسم الا الوزان) .

---

(١) وذلك ما يقع عليه اسم الغرب اليوم ، ولعله يريد بابي رقراق وادي بهت وبابي النصر وادي امزر على حسب ما يقتضيه تفصيله بعد وانما وقع وهم منه او من المترجم .

(٢) لعله مبدأ وادي سبوحيث يسمى فى مبداه وادي كيكو .

والقسم الثالث الذي يعبر عنه غالبا بنوميديا ويشمل درعة وسجلماسة وما ورآهما الى تخوم الصحراء تعرض له في الجزء الثالث وجعله يمتد ما بين حدود ناحية مراكش وناحية فاس والصحراء الى منقطع العمارة. هذا ما لخصته في تقسيماته للمغرب، وتلك اقسام كانت لاشك ذات صبغة ادارية ترجع في باطنها الى اقسام طبيعية سواء من الجهة الانسانية او الارضية.



مثال من الجغرافية الوصفية

وصف فـاس

اغتنم الوزان الفرصة في كتابه فعرض على مخيلته في هذا الجزء الذي ترجمه الى الايطالية مناظر وطنه العزيز واحيى فيه عهده ببلده فاس ، فخصها ببحث مسهب جاس فيه خلال الديار ، وصوب النظر نحو تلك الآثار ، بفكره المحلق وخياله النافذ ، وخلد ذكرى هيامه بالرفاق بعد الفراق ، والبلاد بعد البعاد ، وعلل النفس بالزيارة الخيالية حيث حيل بينه وبين ما يرتجي ، فخلف لنا صورة مجسمة ومثالا مسجلا لحالة فاس منذ اربعة قرون وربع قرن ، ومن أغرب ما يستوقف نظر الباحث أن هذه الصورة لا زالت في غالب اصولها شاخصة الى الآن لم يغير الدهر منها شيئا كثيراً سواء في تخطيط المدينة او تقسيمها او انظمتها الادارية او حالتها الاجتماعية والعقلية ، وأظن أنها المدينة الوحيدة التي حافظت على ثرات المدنية الغربية الاسلامية ، فأصبح كتاب الوزان بسبب تخليد مثل هذه الاوصاف ، من أهم الوثائق التاريخية والجغرافية .

فاس هي الوطن الثاني للوزان وقل هي وطنه الوحيد حيث أنه

بها نشأ وتعلم ومنها درج واليها ينسب نفسه ، ولم يتحقق ازدياده في بلد غيرها ، وقد خصها وناحيتها في كتابه ببحث مسهب جامع . نشاهد خلال هذا البحث مدينة من مدن ذلك التمدن الغربي الاسلامي تمدن المغرب والاندلس على حالتها الحقيقية ، ثم ننظر اليها اليوم وقد حفظت شخصيتها فكاننا نرجع ادراجا الى ذلك العهد الذهبي الاسلامي ونشاطر اهله الحياة برهة من الزمان ، فلا ينقص تلك الصورة الا همم اولائك الرجال الذين شيدوا هيكل ذلك التمدن الراسخ ، وفي هذا البحث ما في الكتاب كله من البيانات المفيدة عن الحالة الاجتماعية والسياسية بالمغرب وافريقيا في ذلك العصر ، واهميته بالنسبة الى المغرب عظيمة حيث أن ذلك العصر كان عصر انقلاب من دولة الى دولة ، عصر انقلاب في سائر مظاهر الحياة ، وقد تجد المؤرخين اهملوه ولم يقيد عنه من حضروه كثيراً لاشتداد الفتن وقيام دولة مكان اخرى ، فالفتن تمنع من التقييد كما أن قيام الدولة الجديدة يخشى معه المؤرخ أن يكتب عن الدولة الراحلة حقائق محاسنها فيتركها جملة وتفصيلا ، وقد عد المؤرخون هذا العصر في المغرب من العصور المبهمة التي ضاعت تفاصيلها وعزت البيانات عنها ، أما الوزان فقد كان بعيداً عن هذه المؤثرات ساعة كتابته لمؤلفه وذلك مما يزيد ابحاثه عن المغرب وغير المغرب قيمة واعتبارا .

لازالت فاس تحفظ الى اليوم مثالا لتلك المدن الزاهرة القديمة في عمارتها وحياتها وشخصيتها ، وفضل هذه العمارة والحياة والشخصية الثابتة مع توالي الايام يرجع الى اسباب محسوسة ثابتة لم تغيرها الحوادث .

فاس توجد في وسط أراضي خصيبة صالحة للزراعة بسائر انواعها ، محاطة بالغابات النافعة ، وحولها الحجارة الجيدة الصالحة للبناء ، والمعادن الحديدية وغيرها ، والطين الصالح لصناعة الفخار الجيد ، ومعادن الجبس والملح وغير ذلك من منابع الثروة واسباب الحضارة والعمران .

ثم إنها توجد في موقع حربي متحصن بطبيعته فهي دائما عزيزة الجانب ، وهي واقعة في نقطة ملتقى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فهي رابطة طريق اسبانيا والمغرب الغربي مع الجزائر والشرق ، كما أنها واسطة طريق المغرب الشمالي وأوروبا الى المغرب الجنوبي وباقي افريقيا ، فهي محطة المدنيات التي تبادلتها كل هذه البلاد كما أنها محطة سائر المعاملات الاقتصادية المتبادلة بينها ، ولذلك نجحت عمارتها بكيفية مدهشة بمجرد تأسيسها ولم يؤثر على تقدمها ما خاضته من الحروب ومر عليها من الفتن ولم يؤثر عليها بعد العاصمة الادارية عنها في بعض الاحيان .

هذا وقد اصبحت منذ تأسست القاعدة الدينية والادبية بالمغرب ويرجع السبب الاصلي في ذلك لشخصية مؤسسها المولى ادريس الرفيع النسب المبجل عند سائر المغاربة حيث دفن بها وخلف فيها نسله الطاهر ، وعزز ذلك وجودها ناهضة في القرن التاسع والعاشر فقصدها اذ ذاك مهاجروا الاندلس عند سقوطها وبثوا فيها ما اوحته اليهم عبقريتهم الصناعية والادبية ، فاصبحت بذلك وارثة الفن والادب الاندلسيين ومعرض تلك القرائح السليمة والنباهة النادرة ، هناك تمت لها الرياسة الادبية والفكرية بافريقيا الشمالية جامعة بين الطارف والتالد ، ولم تقتصر هذه الحياة الادبية والدينية والتفوق المادي على المدينة فقط بل عمت حتى نواحيها وأصبحت متقدمة ناهضة في صناعتها وزراعتها واستثمار كنوز أرضها .

فهذا المظهر الذي نرى فيه فاسا اليوم هو المظهر الذي كان لها على عهد الوزان تقريبا لرسوخ اسبابه ، ولذلك سنحال وصفه لها في ذلك العهد بقدر ما يسعه الموضوع مع ترجمة نبذة منه ، ويمكننا بذلك تشخيص حالة فاس آخر الدولة الوطاسية ثم نعقب ذلك بتخطيط خارطة لهذه المدينة على ذلك العهد مقتبسة من الوزان وغيره .

تقدم الكلام على تحديد ناحية فاس ثم دائرتها الخاصة ، وهنا نشير الى شيء من التفصيل عن هذه الدائرة .

بدأ الوزان فأشار الى شيء من تاريخ تاسيس فاس وتاريخ الدولة الادريسية وسرد بعض اطوار مملكة فاس الى ما آلت اليه في وقته من الانقسام ، وأحال في تفصيل ذلك على كتابه « تاريخ الدول الاسلامية » ، ثم بدأ بالكلام على القسم المسمى « تامسنا » وتكلم عليه من حيث تاريخه وعمارته ، ومساحته ومدنه ، ومحصولاته وما الى ذلك وعلى هذه الوتيرة سار في الباقي من الاقسام وجعل حدود دائرة فاس الخاصة من نهر ابي رقراق الى ايناون ومن نهر سبو الى الاطلس وبسط الكلام على هذه الدئرة بما يشفي ثم عرج على قاعدتها ووصفها الوصف الكاشف الجامع ، وسنعرج على ذلك وقد خصها بنحو ماتي صفحة وسار في الاقسام الاخرى بمثل ذلك البيان وقد تقدمت الاشارة الى حدودها .

تلك هي الاقسام التي جعل لناحية فاس وهي اقسام ادارية كانت لذلك العهد ، ولنرجع الى دائرة فاس الخاصة حيث اليها يساق الحديث .

قال بعد بيان حدود هذه الدائرة « إنها كثيرة العمارة وافرة الحبوب والفواكه والحيوانات على اختلاف انواعها انسية ووحشية » ، ثم أخذ يسرد المدن المتعددة هناك مبتدئاً بالجهة الغربية ٠

وبدأ بسلا فتكلم عن تاريخ تأسيسها واسباب عمرانها ووصفها وصفا كاشفا ، ثم ذكر مدينة سماها فنزرة (١) على عشرة اميال من سلا ، ثم مدينة المعمورة ، ثم مدينة تيفلت . ثم مدينة مكناس ، ثم مدينة جماعة الحمام . قال هي على مقربة من الاطلس وتبعد من مكناس بنحو خمسة عشر ميلا وعن فاس بنحو ثلاثين ، ثم مدينة خميس المطغرة وجعلها بسهل زواغة قرب فاس ، ثم مدينة بني باسل وجعلها تبعد عن فاس بثمانية عشر ميلا غربا ، وتكلم على تاريخ الكل وما آل اليه في وقته ووصفه وصفا موفيا مع بيان مقدار سكانه وعوائدهم وأنواع محصولاته وما الى ذلك ، ثم تصدى لفاس ووصفها الخاص وبعد ذلك رجع الى ذكر مدنها الباقية فسرد هناك المقرمدة ، وعباد والزاوية ، وحمة خولان ، وعمارة جبل زالغ التي كانت متصلة كالمدينة الهائلة ، ثم عمارة جبل زرهون ، ثم مدينة وليلي ، ثم قصر فرعون ثم الدار الحمراء ، ثم مغيلة ، ثم كروان .

وأخذ يذكر بعد ذلك دوائر فاس الاخرى بمدنها وسهولها وجبالها ويذكر للمدن تاريخها ويصف حالتها الحاضرة من سائر نواحيها ثم يذكر الاحوال الطبيعية والمحصولات بانواعها .

---

(١) او فيض الله وهكذا قرأها شيفر .

ونذكر هنا على سبيل الفائدة ترجمة نبذة من كلامه على فاس مع المحافظة على نقل ذلك على وجه ماعنده قال : « فاس مدينة عظيمة وعاصمة سائر المغرب » ثم ذكر تحت هذه الترجمة تاسيسها وتسميتها وذكر مؤسسها المولى ادريس ، وساق تاريخ الادارسة واستحقاقهم للخلافة دون العباسيين ومبدأ تاريخ هؤلاء ومجيء اولائك للمغرب الى تاسيسهم لفاس وآخر أمر الادارسة ثم قال :

« وصف فاس »

« فاس من اكبر المدن تحيط بها اسوار عالية جميلة ، وداخلها مشتمل على ربوات وشعاب ما عدا وسطها الذي هو بسيط ، ومحاطة بالجبال والربى من الجهات الاربع ، ويدخل اليها الماء من موضعين فينقسم واديها الى قسمين ، يمر قسم منه بجانب فاس الجديد ، ويمضي الى الجهة الجنوبية والقسم الاخر يبتدأ مجراه من جهة الغرب ومن ثم ينصرف الماء داخل المدينة في عدة مجار تتخلل دور الاهالي والموظفين وغيرهم وكل مسجد او زاوية او مدرسة او مستشفى او فندق له ساقية خاصة وبجانب كل محل منها تجد قاعة مربعة الشكل تشتمل على مراحيض مصطفة وكل مرحاض له صحن من مرمر يجري به الماء وينزل منه الى الارض ثم ينصب في مجرى من مرمر ثم يذهب

بالاوساخ في قنوات تقذفه مع باقي فضلات المدينة نحو النهر وفي وسط كل قاعة تجد صهريجا منخفضا عمقه ثلاثة اذرع وعرضه اربعة وطوله اثنى عشر وحوله ثلاثة مجار يذهب فيها الماء وينحدر الى مائة وخمسين مجرى ثانويا (١) .

ودور هذه المدينة مبنية بالاجر والحجر المتقن واكثر مرافقها منمقة مفروشة بالزليج وما لاسقف له من مرافقها وسقائف ابوابها مفروش بنوع من الاجر خاص مثل عمل القدماء متنوع الالوان والتمويه على شكل اواني الفخار المزدجة (٢) .

وعادة الاهالي أن يزينوا سقوف بيوتهم بزخرفة فائقة والوان رائقة من بينها الذهب والفضة ، ويجعلون فوق دورهم هيئة من خشب يمكن معها تغطية (صحن) الدار بالاقمشة للنوم هناك ايام المصيف .

وكل هذه الدور عبارة عن بناءات ضخمة تتركب من طبقتين او ثلاث ولها سواء في الطبقات العليا او السفلى اروقة ذات اقواس تتمم بهجتها ومن فوائد هذه الاروقة أن تمر بها من حجرة الى اخرى

---

(١) هكذا هذا العدد في الترجمة الفرنسية . جلب الوزان هذا التفصيل عن المستراحات بفاس لان اروبا اذ ذاك لم تكن تعرف مستراحا فوصف لهم ما في بلده مما يجهلونه ليقتدوا به مؤلف .

(٢) هو البجماط المزدج بلغة فاس .

والسقف ، يظلك وفناء الدار عار عن السقف والبيوت حوله وتفتح ابوابها الواسعة المرتفعة اليه ، والاغنياء يجعلون هذه الابواب منقوشة ويجعلون في داخل بيوتهم خزائن من ارفع انواع الخشب تحيط بها طولا وعرضا ويطلونها بالاسباغ الجميلة ويملؤنهـا بكل ماهم من الاثاث الرفيع ومنهم من يتخذ (أسرة) على مثال هذه الخزائن علوها ثلاثة اقدام فقط يجلسون عليها ويضعون عليها الافرشة .

وسائر ابواب الدور تحمل سقائفها على اعمدة من آجر نصفها مزلج ومنها ما يحمل على اعمدة من مرمر وعليها اقواس مزخرفة بالزليج ، وطبقات الدور تحمل على قناطر خشبية من ارفع انواع الخشب مزخرفة منمقة مسبوغة بالوان جميلة مؤلفة على نمط معجز تحملها السواري .

وتجد عدة دور لها صهاريج مستطيلة الشكل عرضها خمسة او ستة اذرع وطولها عشرة او اثنا عشر وعمقها ثلاثة او اربعة اقدام ليس عليها سقف وجميعها مزلج وفي جهتي الصهريج من ناحية امتداد طوله حوضان منخفضان منمقان بالزليج مثل ما نرى بأروبا وفي وسط كل واحد من هذين الحوضين خصة من رخام ينزل منها الماء في الحوض وينصرف نحو الصهريج وينزل الماء من الصهريج في قنوات حوله واذا طفح نزل الماء من جوانبه الى مصارف اخرى حوله ومنها الى قنوات

ثم الى الوادي ، وهذه الصهاريج محفوظة منظفة ولكنها لا تستغل الا ايام المصيف حيث يعوم بها النساء والصبيان ، ومن عادة الاهالي أن يشيدوا في اعلى دورهم بروجا مرتفعة فيها غرف منمقة يصعد اليها النساء لترويح النفس اذا اعيتهن اعمال المنزل .

ومن اعلى هذه البروج يمكنك أن تشرف على منظر المدينة كله ، هذا المنظر الذي يشتمل على سبعمائة مسجد وجامع وتلك هي المحلات التي تقام بها الصلاة ، وبين هذه المساجد يوجد نحو الخمسين جامعا ضخمة البناء عظيمة الزخرفة تحمل سقوفها على اعمدة الرخام وكل جامع له صهريج من رخام او غيره (لم ار مثلها بايطاليا) (١) وعلى تيجان هذه الاعمدة ترى انواعا من صناعة الزليج والنقش الغريب ، وسطوح هذه الجوامع تشبه سطوح معابد أُروبا ، وسقوفها من خشب وارضها مفروشة بحصور جميلة مؤلفة على كيفية لاتظهر معها الارض والحياطان كذلك مستورة بحصور على قدر ارتفاع قامة ، وفي كل جامع منار يصعد لاعلاه المؤذن ليعلن باوقات الصلاة وينادي لها وهذه الصلاة يؤم بالناس فيها امام بكل جامع وهذا الشخص له اجرة من مداخل الجامع وهو مع ذلك مكلف بضبط المداخل وتفريقها على

---

(١) جملة زائدة بالنسخة الايطالية .

السدنة القائمين بحراسة الابواب او المؤذنين بالليل لان المؤذنين بالنهار لا أجرة لهم وانما هم معفون من الضرائب الحكومية ، وبين هذه المعابد مسجد جامع اعظم يسمى بالقرويين ، ودائرته نحو الميل ونصف له احد وثلاثون بابا (١) كبارا جداً مرتفعة .

والقسم المسقف من المسجد طوله مائة وخمسون ذراعا ولا يقل عرضه عن ثمانين ، ومناره مرتفع جداً ، وسقفه يحمل طولا على ثمانية وثلاثين قوسا ، وعرضا على عشرين ، ومن جهة الشرق والغرب والشمال (٢) تحيط بالجامع اروقة ذات اقواس ، وعرض الرواق ثلاثون ذراعا وطوله اربعون ، وتحتها خزائن تودع بها الزيت والمصابيح والحصور وغير ذلك من لوازم الجامع .

وتوقد في هذا الجامع كل ليلة تسعمائة مصباح ، حيث أن كل قوس له مصباحه ، وتوقد في البلاط الذي يشق وسط الجامع في مقابلة المحراب مائة وخمسون مصباحا ، وهناك ثريات من نحاس تسع الفا وخمسمائة مصباح اتخذت من نواقيس ، أخذها بعض ملوك فاس من بعض كنائس النصارى .

---

(١) لعل في العدد تقديما وتاخيرا واصله هكذا ١٣ صحف الى ٣١ وهو الان ١٤ .
(٢) هكذا فى الترجمة ولعل هناك بعض التحريف غلطا من المترجم .

وحول حيطان هذا المسجد كراسي منصوبة مختلفة الاشكال ، يجلس عليها العلماء والمدرسون ليعلموا العامة امر دينهم ودنياهم ، ويبتدئون ذلك قبل طلوع النهار بساعة (وينتهون في الساعة الواحدة بعد الزوال) (١) وفي أيام المصيف يبتدئون في الساعة الثامنة عشية وينتهون في الواحدة ونصف ليلا ، ويدرسون هناك العلوم الاخلاقية والعقلية والدينية ولكن لا يقوم بالدرس في ايام المصيف الا افراد قليلون لاشهرة لهم ، وفي غير ذلك من الايام يقوم بالدروس افراد متبحرون في مختلف المعارف النظرية وفي العلوم الشرعية قابضون على زمامها ، ولهم على ذلك أجور وافرة خاصة علاوة عل ما يقبضونه من الكتب والشمع .

وامام هذا الجامع ليس عليه تكليف ما عدا الصلاة بالناس ، ولكن عليه أن يضبط ما يقدم اليه من اموال وغيرها للايتام اللقطاء ، ويفرق على الفقراء مايوصى لهم به من اموال وحبوب باجتهاده ونظره .

اما قابض مداخل الجامع فله ادارة خاصة واجرته دكة في اليوم ومعه ثمانية عدول ، واجرة كل واحد ست دكات شهرية ، وتحت نظره ستة قبضة لقبض دخل الدور والحوانيت وغيرها ، ولهم خمسة في المائة أجرة على ما يقبضون ومعهم عشرون معينا ليس لهم شغل

---

(١) هذه الجملة زائدة فى الاصل الايطالى .

سوى تفقد الحرائين وخدمة العنب والبساتين والنظر في لوازمهم ولهم على ذلك ثلاث دكات شهرية لـكل واحد .

وقرب المدينة على مسافة ميل يوجد نحو العشرين فرنا لطبخ الآجر والمواد لبناء املاك الجامع ، الذي دخله مائتـا دكة يومية ، ونصف هذا الدخل يصرف فيما ذكر قبل مع لوازم المساجد والمعابد التي لا دخل لها ، وكثيراً ما استسلف ملوك فاس من وفر الجامع اموالا طائلة من غير أن يردوها .

وفي المدينة مدرستان عظيمتان بلغتا النهاية في رونق البناء وزخرفة الزليج ورقة النقوش ، احداهما مفروشة بالزليج (١) والاخرى بالرخام وفيها عدة بيوت الا أن واحدة منهما أكثر بيوتا من الاخرى ويبلغ عدد بيوتها المائة وكلاهما من بناء ملوك بني مرين الذين بلغوا النهاية في اتقان واحدة منهما والذي بناها هو السلطان ابو عنان وجعل بها صهريجا من رخام يسع نحو عشرين قنطارا من الماء ويشقها واد صغير مجصص المجرى وحافتاه من رخام وزليج وبداخل المدرسة ثلاث قاعات داخلها نادر الاتقان والتنميق وبها اعمدة رخامية مثمنة الشكل قد

(١) لعله يقصد بهذه مدرسة العطارين وقد خص هذين المدرستين بالذكر لكبرهما وهناك مدارس كانت موجودة وقد اشار اليها اشارة قصيرة بعد وربما سقط التفصيل للمترجم الفرنسي . لف

الصقت بالحيطان المزخرفة واخرى تحمل حنايا منمقة بالزليج وبالذهب الخالص والفضة وسقف القاعات من خشب بديع الشكل رقيق النقش نهاية في الزخرفة وآية في حسن الالتئام ، وتحيط بالصحن اروقة وامامها شبابيك مصنوعة عل نمط يمكن معه لمن بداخل الرواق أن يرى من بخارجه دون أن يرى والحيطان مكسوة بالزليج على علو قامة او اكثر وقد نقشت في هذا الزليج ايات منها ما هو في تاريخ تاسيس هذه المدرسة ومنها ما هو في اطراء المؤسس ابي عنان وهذا النقش عبارة عن حروف غليظة من زليج اسود في بياض من زليج ابيض على كيفية تمكن معها قرءاة الكتابة من بعيد .

وأبواب هذه المدرسة من نحاس مزخرفة كما أن أبواب البيوت من خشب منقوش ، وفي القاعة الكبيرة التي تقام بها الصلاة منبر من تسع درج وكله من عاج وعود ثمين ، وهو احق بالاعجاب والاستغراب لدقة صنعه ، وقد سمعت من عدة أشخاص سمعوا ممن قبلهم أن السلطان أراد أن ينظر في دفاتر الحسابات عند انتهاء بناء هذه المدرسة ليرى كم صرف عليها ، فلم يطالع الا بعض الاوراق حتى بلغ الى صائر قدره أربعة آلاف دكة ولكن ادركه الاعجاب ولم يتم مطالعة الحساب بل مزق الدفاتر والقاها في الوادي الذي يشق المدرسة وأنشد هذين الشطرين :

« ليس لما قرت به العين ثمن ✿ لا باس بالغالي اذا قيل حسن »

وقد احصى بعض أمناء السلطان واسمه : « ابن لاجي » هذا المصروف فوجده أربعمائة وثمانين الف دكة ، وليس في مدارس فاس ما يشبه هذه المدرسه في اتقان صنعتها وإبداع شكلها ، ومع ذلك فكل واحدة من هذه المدارس يدرس فيها نوع من العلوم ، ولها نظام خاص واوقات دروسها منظمة محصورة ، ومنها ما تلقى به الدروس ليلاً ومنها ما تلقى به نهاراً ، ويصرف عليها من الاموال التي وقفها عليها مؤسسوها.

وقبل هذا كان الطلبة يقيمون في هذه المدارس سبعة اعوام سكنى وأكلاً وكسوة ، ولكن ليس لهم الآن الا السكنى حيث أن حروب سعيد (١) أتت على مداخل المدارس ولم يبق منها الا شيء قليل يصرف على الطلبة ، فمن المدارس ما صار مدخولها الى ماتي دكة ، ومنها ما صار الى مائة ، ومنها ما اكثر او اقل من ذلك بيسير .

وهذا ما رجع بفاس الى القهقرى مع ما جمعته من الخصال والميزات الوافرة وما كانت عليه من العظمة ، ولم تتأخر وحدها بل تاخرت بتأخرها افريقيا جمعاء حيث أن مدارسها لم تبق مقصداً الا لعدد قليل من

(١) هي حروب ابى سعيد عثمان بن ابى العباس آخر ملوك بني مرين قبل ولده عبد الحق .

الطلبة الافاقيين ، وهؤلاء الطلبة لم تبق لهم جرايات وانما يتعيشون مما يتصدق عليهم به اهل البلد او اهل نواحيها .

واذا جلس المدرس للدرس بدأ بسرد المدروس ثم فسره كلمة كلمة وبين ما اشكل منه ، ومن عادة الطلبة أن يتذاكروا بينهم في مواضع دروسهم . »

الى هنا انتهى الفصل ، ولعله سقط للمترجم فيه شيء كما يظهر من وسطه ومقعطه ووقع للمترجم بعض الايهام تركته على هيئته وقد استعنت بنسخة ايطالية على الترجمة الفرنسية .

وجاء الوزان بعد هذا الفصل بفصول أخرى ممتعة نسردها على سبيل الاجمال : ذكر فصل المستشفيات والحمامات . أما المستشفيات فهي عديدة داخل المدينة وخارجها ولكن آل امرها الى ما آل اليه امر المدارس ، واكبرها مستشفى سيدي فرج الذي يعبر عنه هو بالمستشفى الكبير ، وأما الحمامات فعددها مائة وهي قائمة احسن قيام ووصف الكل وصفا مدققا .

ثم ذكر الفنادق وهي نحو المائتين وذكر احوالها ووصفها وصفا كاشفا ، ثم ذكر المطاحن المائية وعددها نحو اربعمائة ومنها ما يبلغ عدد احجاره ستة وذكر اوصافها وكيفية عملها .

ثم ذكر أنواع الصنائع ومواضعها والاسواق ، وبدأ بما حول القرويين فذكر ثمانين حانوتا للعدول ، وثلاثين للكتبيين ، وخمسين لباعة البلغة (السبطريين) ، وخمسين للفواكه ، وخمسا وعشرين لباعة الازهار ، وعدة دور لبيع اللبن الطري والحامض ، وثلاثين حانوتا لباعة القطن ، وعدة حوانيت لباعة الفخار ، وأخرى لباعة السروج . ثم قاعة لحرفة (زرزاية) الحمالة وعددهم ثلاثمائة ، وسوقا للخضر وعدد حوانيته اربعون . ثم قاعة الشوائين وقاعة اللحم وبها اربعون حانوتا ، وقاعة الاغطية الصوفية وعدد حوانيتها مائة وبها ستون دلالا . ثم قاعة الاسلحة ، ثم قاعة الاغمدة ، ثم قاعة الحواتة . وأربعين حانوتا لصناع القفوص ، وعدة حوانيت لباعة الصابون ، وأخرى للدقيق ، وأربعة عشر حانوتا لصناع الدلاء ، ومائتين لغسل الثياب .

ثم ذكر قاعة القيسارية وما اشتملت عليه من الاسواق وعدتها خمسة عشر : منها سوق السباط ، وسوق الحرير وحوانيته خمسون ، وسوق الحزم ، وسوق الملف وفيه زقاقان وكل باعته من غرناطة ، وسوق الفرش ، وسوق المكوس التي تقبض من الدلالة ، وسوق الطرز وفيه ثلاثة ازقة ، وسوق الكتان وفيه زقاقان ، وسوق البرنوس وسوق الكسوة ، وسوق البالي ، وسوق الاخمرة وغير ذلك . ووصف

كل هذا بتدقيق ثم ذكر اصل التسمية بالقيسارية وأسباب جمع هذه الاسواق داخل سور واحد وما تقبض هناك من المكوس .

ثم ذكر سوق العطارين وما يباع فيه من الابازير والادوية وكيفية نظام ذلك .

ثم اخذ يذكر صنائع فاس ومواضعها .

ثم ذكر القسم الاخر من فاس وما فيه من اقسام ومدارس ومساجد واسواق وصناعات وهو عدوة الاندلس .

ثم تكلم على مياه فاس وما بداخلها من العيون وهي ستمائة .

ثم تكلم على الجهة الغربية وهي حومة الدوح والجرف ووصف ما فيها من الجنات والاغراس والرياض الفيحاء وانواع الاثمار والازهار .

ثم تكلم على قصبة فاس المرابطية وذكر اصل تأسيسها ووصفها على عهده ووصف مسجدها (وهي قصبة أبي الجنود مع ساحته) .

ثم عقد فصلا للعدلية ورجال القضاء والافتاء والشهادة والشرطة والامن ومراقبة الصنائع والماكولات بفاس ، وكيفية نظام كل قسم واعماله ، وهيئته في لباسه ومروآته ، وأتبع ذلك بنبذة استطراديه في نظام الناس في ملابسهم من رجال ونساء .

ثم ذكر نظام المآكل وكيفيتها واوقاتها وانواعها .

ثم ذكر العوائد المتبعة في الاعراس ونظام الزواج ثم العوائد في مطلق المحافل والمآتم .

ثم ذكر كيفية تربية الحمام عند الاهالي في سطوح الدور ، وتروحهم النفس بذلك .

ثم الالعاب التي يتسلى الناس بها في دورهم ومنتدياتهم .

ثم ذكر الشعراء اصحاب الملحون وعوائدهم ليلة المولد النبوي بقاعة سيدي فرج من إنشاد الامداح النبوية بمحل مخصوص هناك .

ثم ذكر المدارس القرآنية وعددها ازيد من مائتين وبين عوائدها وانظمتها .

ثم ذكر انواع السحرة والكهنة واصحاب العزائم والجداول .

ثم ذكر البدع والطوئف والطرق الصوفية وذكر سائر اصولها واطوارها ونتائج اعمالها .

ثم ذكر اصحاب الكنوز واصحاب الكيميا واصحاب اللعب بالاحناش .

ثم وصف ارباض المدينة ثم المقابر خارج المدينة ثم مقابر الملوك التي خارج باب عجيسة ووصف ضخامتها وزخرفتها .

ثم تكلم على البساتين والمباقل المحيطة بالمدينة .

ثم تخلص للمدينة الجديدة البيضاء ووصفها وذكر سائر احوالها .

ثم ذكر عوائد القصر الملوكي وأنظمته واحواله ونظام الحكومة وتقسيم اعمالها وترتيب دواوينها .

ثم ذكر بعد ذلك المدن التي تحيط بفاس .

وختم بهذه الكلمة : « لاشك أني قد أطلت فى استقراء وصف مدينة فاس ، نعم ! ولكني قد رأيت ذلك من الواجب المتحتم حيث أنها مجمع مدنية البلاد البربرية وخلاصة ما بافريقيا جمعاء من الكمال والرونق ، ولذلك تعين تفصيل احوالها واستقراء جزئياتها . »

ملاحظة ومقابلة

هذا أسلوب من أساليب الوصف وطريقة طريفة في بابها تهجم عليها الحسن الوزان في وصف فاس فافلح فيها ، وهي الانكباب على المدنية من اعلاها والاسترسال في وصفها ، وقد تقدمه غير واحد في وصف فاس ولم أر من تنبه الى هذه الطريقة الجامعة بين ماتتطلبه مهنة الكاتب الجغرافية من دقة الوصف وما تجذبه اليه عاطفة الادب من رقة الخيال وقد جمع بينهما الوزان فاحسن الجمع ، وتذكرني هذه الطريقة في الاسلوب الذي تخيره الاخوان طارو Tharaud في كتابهما « فاس او حضريوا الاسلام » فقد ذكرا في هذا الكتاب أنهما اقبلا مع المرشال

اليوطي لاول مرة نحو فاس ، فلما بلغا اعالي المدينة تقدم بهما الى جهة قباب بني مرين ومن هناك اطلا على فاس البيضاء الهادئة وأخذا يصفانها وصفاً رشيق العبارة رقيق الاسلوب جيد الخيال ، وتسربا من هناك الى اقسام كتابهما من وصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية وغيرهما ،نعم قد شاركا الوزان في كيفية طرق الموضوع والاسترسال في الوصف ولكن فاتتهما نزاهة الضمير وتصوير الحقائق والاخلاص في الحكم ، هذه المميزات التي تجسمت في سائر ما كتبه الوزان عن فاس ، فقد شحن « طارو » كتابهما بجزئيات لاتنطبق والواقع ، وارتكبا فيه كثيراً من طريقة الانجليزي الذي دخل باريز فرأى امرأة شقراء فكتب في مذكرته : « كل نساء باريز شقر » . وقد ذهب بعض كبار المؤرخين المعاصرين الى القول : (بعد ما سرد كتب طارو وانتهى الى كتابهما فاس او حضريوا الاسلام) : «أنه ظهر تبدل في عاطفتهما في هذا الكتاب الاخير بالنسبة الى اول كتاب كتباه عن الاسلام منذ عشرين سنة فأخذا يعمدان الآن الى طرق النقد والسخرية احيانا بما يريان من مدنية الاسلام » وقد اشار الاستاذ محمد كرد علي في كتابه « الاسلام والحضارة العربية » الى هذا التعصب الذي يخالج افكار بعض الشعوبيين وجلب ما يناقضه من افكار المنصفين وعقد لذلك فصلا تحت عنوان « نقد علماء الغربيين مما حكات الشعوبيين » .

وعندي أنه يبعد من الاخوين طارو اضمار كراهية للاسلام اذ لاموجب فيما أرى لذلك وانما جرهما لهذا الاسلوب الاخير من الكتابة كثرة ثقتهما بمن شرح لهما ما شرح وتكاسلا عن الوقوف على الحقائق وحتى عن عرض ما عرض عليهما على محك النقد ، فجاء كتابهما مموها من الوجهة الخيالية مشوها من الوجهة الحقيقية ، فما كان اغناهما عن السخرية وما يبررها من الجزئيات الوهمية وما كان احوجهما الى البحث عن حقائق الاشياء وتصويرها في اجمل صورة تنطق بالحقيقة وتسفر عن نزاهة الضمير ! ، فاذا كان مرادهما رواج كتابهما فقط فسفسفة السخرية وبهرجة الخيال يروجان الكتاب كما أن روعة الجمال وتصوير الحقائق يروجانه مع الابقاء على شرف صاحبه والثقة به ، وقد احسن بعض كتاب الغربيين في نقد هذا الكتاب اذ قال : إن « طارو » لم يذهبا الى منابع عيون فاس العذبة الصافية فيستقيان منها ولكنهما ذهبا الى حيث تنصرف مياه فاس بما فيها من الاوساخ ومن هناك استقيا فلا عجب اذا تكدر صفو كتابهما .

وقد قامت عليهما ضجة اثر ظهور الكتاب والظن بهما الرجوع بعد الى تحقيق الحقائق والاستغفار مما أداهما اليه تقليدهما وتغفيل المغفلين المغرضين لهما .

تتمة

أريد ان اتمم هذا البحث بإيراد ترجمة بعض الفصول مما اجمل سابقا في وصف فاس وبالاخص ما يرجع من ذلك الى حالتها الاجتماعية والاقتصادية والادبية زيادة على الفصل الاجمالي السالف تتميما للفائدة وخدمة لتاريخ هذه البلاد مع انتخاب ما أرى فائدة في ترجمته من كل فصل والتحافظ ما أمكن على عبارة المؤلف وتأدية أسلوبه قال :

« نبذة من حال العدلية بفاس »

« توجد بفاس محاكم وهيئات شرعية منظمة ، فهناك عامل له النظر في الشؤون المدنية والجنائية ، وهناك قاض له النظر في الشؤون الشرعية ، ومعه شخص آخر كالنائب عنه ينظر فيما يتعلق بالزواج والطلاق ويراقب امر الشهود وسير المرافعات عامة وهو المفتي الذي يستشار في النوازل قبل اجراء المسطرة او اثناءها اذا تعارضت انظار المفتين . . .

« والقضاة الشرعيون ليس لهم اجرة اصلا لان ذلك محرم في الشريعة المحمدية ولـكنهم يتعاطون غير هذه الخطة مما فيه اجرة كالوعظ والامامة في المساجد ، واما المفتون والوكلاء الموجودون في هذه المدينة فهم من احط الناس اخلاقا واكثرهم دهاء ومكراً . . . »

وذكر هنا كلاما عن العامل يشبه ما كانت عليه حاله في عهد المخزن السابق ، فلا نطيل به ثم قال : « وللمحتسب اثنا عشر شرطيا يرافقونه عند طوافه بالمدينة لاختبار موازين القصابين وامتحان مبيعهم ، وتفتيشه امر الخبازين ، فاذا وجد الخبز غير مستوف لوزنه اللازم كسره قطعا وامر بصفع الخباز صفعا يكاد يذهب بحياته ، واذا وجده قد افرط له في الماء امر أن يطاف به في ازقة المدينة وأن يجلد اثناء ذلك ، ووظيفة المحتسب ينعم بها السلطان الآن على كل من طلبها منه كيفما كان حاله ، وقبل اليوم كانت تعطى لرجل عالم من اصل رفيع فاليوم يصل اليها الاسافل باسهل مما يصل اليها غيرهم ممن يستحقها . . . »

« البساتين والمباقل بفاس »

« يوجد بالناحية الشمالية من فاس ثم بالناحية الشرقية والجنوبية عدد عظيم

من الاغراس ، تسق بجداول تستمد من الوادي وتعطي اثمارا وافرة مختلفة الانواع ، والاشجار هناك باسقة عظيمة ملتفة كأنها غابة ، ومن العادة هناك أن لا تغرس الاشجار الا في المكان الذي يعمه الري ولذلك تاتي الثمار بكثرة مع جودة لاتضاهى ما عدا الخوخ فان طعمه غير جيد ، واتفق الخراصون على أنه في ابان الغلة تخرج من هناك في كل يوم خمسمائة حمل من الثمار تحمل الى قاعة بالمدينة ليؤدى المكس عنها هناك وتباع بالمزايدة بين باعة الفواكه ، وفي تلك القاعة نفسها يباع الرقيق ويؤدى عنه المكس .

« وزيادة على ذلك يوجد بالجهة الغربية محل آخر عرضه خمسة عشر ميلا وطوله ثلاثون وهو من احباس الجامع الاعظم (القرويين) تشقه اودية وجداول للري ، يكتريه الفلاحون ويزرعون فيه شيئا كثيراً من الكتان وانواع الخضر والبقول بكثرة حتى ان محصول غلته في المصيف يقدر بخمسة عشر حملا وفي الشتاء بمثل ذلك باتفاق الخراصين ، وليس هناك مايعاب سوى كون مناخ هذا المحل وخيما حتى ان كل من يسكنه يصفر لونه ويصبح هدفا للحمى المعروفة التي تبيد أمما عديدة » .

« مدارس الصغار بفاس »

« توجد بفاس مائتا مدرسة لتعليم الاطفال ، وهي عبارة عن قاعات

واسعة وداخلها محاط بالدكاكين لجلوس التلاميذ ، والمعلم يعلم القرآة والكتابة على الواح واسعة يكتب التلاميذ فيها جزءا من القرآن في كل يوم ويسيرون على ذلك فيختمون القرآن في سنتين او ثلاثة ويعيدون ختمه مرات عديدة حتى يحفظونه عن ظهر قلب ، واقصى ما يقضون في ذلك سبع سنين ويتعلمون مع ذلك مبادي من قواعد الرسم ، وهذا الفن يدرس بسائر المدارس العلمية مع النحو واه نظامه هنالك .

وأجرة هؤلاء المعلمين طفيفة ، ولكن كلما بلغ التلميذ الى قسم من القرآن قدم ابوه صلة للمعلم ، واذا ختمه اقام الاب حفلة لسائر رفقاء ابنه ، فياتي ابنه محفوفا بهم في اثواب فاخرة راكبا على جواد رفيع يعيره عامل المدينة بسلاحه الثمين لكل من ختم القرآن ، ويركب حوله سائر رفقائه على الفرسان وياخذون في انشاد اشعار في تمجيد الله ومدح نبيه ، ثم يقبلون الى محل الاحتفال الذي يحضره سائر احباء الاب بقصد أن يقدموا جميعا هدايا للمعلم ، ويظهر سائر الاطفال بهذا الاحتفال في اثوابهم الرفيعة كما تقتضيه العادة .

ويقيم التلاميذ ايضا احتفالا بمولد النبي فيعطي كل اب لولده شمعة كبيرة تساوي ثلاثين « ابرة » ومنها ما يساوي اكثر واقل على حسب ثروة الاب ، وعلى الشمعة نقوش وزخرفة بالالوان والخطوط الهندسية

وصور ازهار بارزة من شمع ، وتوقد من اول الايل الى الشروق ، ويأتي المعلم بمنشدين يتغنون بالامداح النبوية طول الليل ، وما بقي من الشمع ياخذه المعلم ويبيعه وربما اجتمع لديه من ذلك مائتا دكة فاكثر على حسب كثرة تلاميذه ، وليس لهذه المدارس كراء يؤدى عنها حيث انها من تحبيس بعض كبراء واعيان المدينة.

وللتلاميذ سواء تلاميذ الكتاتيب او المدارس العلمية عطلة يومين في الاسبوع ليس لهم فيها قرآة ولا درس .

«مستشفيات المدينة»

« توجد بفاس مستشفيات ومدارس نهاية في الرونق والاتقان ، وكل غريب دخل المدينة له أن يقيم بهذه المستشفيات مدة ثلاثة ايام ، وتوجد خارج المدينة عدة مستشفيات لا تقل اتقاناً عن التي بداخلها وكانت لها قبل مداخيل وافرة ، ولكن أيام حروب سعيد (١) (أبو سعد) احتاج هذا الملك الى المال وأشار عليه بعضهم ببيع أوقاف

(١) هو ابو سعيد عثمان بن ابي العباس بن ابي سالم آخر ملوك بني مرين قبل ولده عبد الحق ، كانت ايامه كلها فتنا ومات مقتولا اثناء فتنة داخل القصر لم يفلت منها الا ولده عبد الحق الذي كان عمره نحو السنة وبويع تحت حضانة ابي زكرياء يحيى الوطاسي . مؤلف

هذه الملاجئ ، فعارضته الامة أشد معارضة ووقفت في وجه ما يريد فأجابها أحد وزرائه بقوله : « إن هذه الملاجئ نفسها وأوقافها هي من صدقات اجداد الامير ، وحيث ذلك كذلك فمن حقوق الملك أن يفوت هذه الاوقاف ويصرف اثمانها في مصالح الدولة الضرورية الاكيدة والتي اذا لم يقم بها ضاعت مملكته ، فاذا دفع العدو وانتهت الحرب أعاد شراء هذه الاملاك . » وبقي هذا الموظف يحتج لهذه الفكرة ويؤيدها حتى بيعت أوقاف هذه الملاجئ وأدركت الملك المنية فلم ينجز وعده ولم تعد المستشفيات الى ما كانت عليه وانما أسند القيام بها الى بعض علماء وأعيان المدينة وكثيراً ما أخل هؤلاء بالواجب لقلة المداخيل الخ (١) .

« أرباض المدينة »

« يوجد خارج المدينة من الجهة الغربية ربض مشتمل على نحو خمسمائة كانون ، دوره غير متحضرة وتسكنه الطبقة السفلى من الناس كقادة الجمال والسقاة والحطابين وبه مع ذلك عدة حوانيت واصحاب صناعات . . .

(١) هذه من قضايا التاريخ الغريبة التي أشار لها الوزان وفي مثلها يقال أفسد الخلف ما أصلح السلف ، ومعلوم في التاريخ ما أبادته فتن ابي سعيد من المدنية المرينية بالمغرب ولله الامر من قبل ومن بعد . مؤلف

وهناك ربض آخر خارج المدينة ايضا به نحو مائتي دار مختص بالمجذومين ولهم رؤساء ونظار وهؤلاء يقبضون ريع الاملاك العديدة التي حبسها الناس على هؤلاء المرضى لوجه الله وتنفق عليهم فيعيشون هناك في ارغد عيش فلا اتمنى لهم زيادة على ذلك الا الشفاء .

ومن وظيف الرؤساء جمع المصابين بهذا المرض في المدينة وجلبهم لهذا المحل ، واذا مات احدهم وليس له وارث رجع نصف متروكه لجماعة الربض والنصف الاخر لمن له به علاقة واذا كان له وارث رجع ارثه له جميعه ، وكل من به برص في جسده او داء لاعلاج له يلحق بهؤلاء المرضى .

وهناك ربض آخر اصغر من هذا يشتمل على نحو مائة وخمسين كانونا يسكنه المكَارون وحملة الطين والبناءون والنجارون .

وعلى حافة الطريق الغربية الكبرى يوجد ربض آخر اكبر من هذا يشتمل على نحو اربعمائة كانون يسكنه العملة وفقراء المدينة .

وبجانب هذا الربض يوجد فسيح من الارض واسع بالغ الى الوادي الذي يبعد عن هذا المحل بنحو ميلين وممتد الى جهة الغرب على نحو ثلاثة اميال ، يقام في هذا المحل كل يوم خميس سوق يجتمع فيه جم غفير من الناس والدواب ، والتجار يعرضون هناك سلعهم للبيع تحت

الخيام ، وهناك عادة خاصة وهي أن جماعة من الناس يذبحون كبشا عند جزار ياخذ سقطه في اجرته ويقسمون اللحم بينهم ويبيعون الجلد لمشتري الصوف .

وتؤدى عن السلع المبيعة في هذا السوق ضرائب طفيفة ومع ذلك يجتمع في مكوسه شيء كثير .

ولا أريد أن ازيد في هذا الحديث حتى أوكد لك أني ما دخلت سوقا قط لا بافريقيا ولا بايطاليا اجتمع فيه من الناس مثل هذا ولا عرضت فيه سلع مثله بحيث أنه أعجوبة للناظرين . »

« عوائد القصر وأنظمة الملك بفاس »

عقد الوزان لهذه الترجمة فصلا مسهبا هنا ونحن نقتطف بعضه خوف الاطالة ، ذكر اولا ضابط الخلافة العظمي وما كانت عليه في اصلها ثم ما آلت اليه من التسلط والعصبية وبعد ذلك قال :

« وقد تسلط كثير من الافراد على الملك دون احتياج الى انتخاب الامة والقواد والاعيان لهم ، واذا حضرت الملك الوفاة أخذ العهد على كبار حاشيته بمبايعة ابنه او اخيه من بعده وقليلا ماينفذ هذا العهد ، وانما تبايع الامة من يصلح للقيام بشأنها .

وعلى هذا المبدإ الاخير يبايع ملك فاس ، فاذا تمت له البيعة اختار اعظم رجل في مملكته واتخذه وزيراً وجعل له من الاجرة مقدار ثلث ما لنفسه ثم يختار شخصا آخر يجعله كاتبا وآخر خازنا وآخر امين القصر وينتخب قواداً لجيش الفرسان وهم الذين يقومون بحرسه وغالب ايامهم يقضونها في البادية ، ويولي على كل مدينة عاملا يجبي ضرائبها ويصرفها في مصالح جيش عنده يكون تام العدة مستعداً دائما لتنفيذ اوامر الملك رهن اشارته كلما اراد جمع الجيوش لديه ، ويولي القواد والعمال على سكان الجبال وعرب السهول الداخلين في ايالته ، فيتولى القواد الاحكام في كل جهة على حسب القوانين الجارية فيها ويتولى العمال ضرب الضرائب واستخلاصها وضبط شؤونها سواء الاعتيادي منها وغير الاعتيادي.

ويعين الملك عدة اشخاص يعرفون برجال الحرس ينفذ لهم دخل قرية او قريتين ووظيفتهم الحضور مع الملك في سائر مظاهره ، وفي عهدتهم عدة خيول جياد يقوم الملك بمؤنتها اذا كان في حرب فاذا انتهت الحرب قاموا هم بشؤونها وتدفع لهم في مقابلة ذلك الحبوب والسمن واللحم المصبر في كل سنة مع شيء من الدراهم والكسوة الكافية ، وهذه الافراس تكون في رعايتهم وحفظهم سواء منها ما كان داخل المدينة او ما كان خارجها حيث أن سائر اللوازم متعهد لهم بها .

وسائر خدمة الاروى بالقصر عبيد نصارى ، وكل واحد منهم في رجله سلسلة غليظة من حديد ، وفي اثناء التنقلات يركبون على الجمال ويرجع نظرهم الى قائد خاص ، ومن مأموريته النظر في رعاة تلك الابل ومرعاها وايجاد القدر الكافي منها لشؤون السفر ، وكل جملين مكلف بهما شخص يقدم للعمل واحداً ويريح الاخر .

ويتخذ الملك ايضاً رئيساً للتموين يكون له النظر في سائر خدمة المطبخة وتنظيم طعام الملك واعداد تقديمه ومؤنة الجيش وكل ما يؤول الى ذلك ، وله عشر قباب او اثنتا عشرة واسعة يدخر فيها المؤن ويستعمل الجمال لحمل الماء مناوبة حتى لا يقع تعذير .

ويتخذ الملك أميناً للقصر يرجع اليه النظر في سائر مراكيب الملك الخاصة من خيول وبهائم وجمال ياخذ مؤنة ذلك من رئيس التموين ، وله النظر في كل ما يرجع الى عائلة الملك ياخذ مؤنها من رئيس التموين كذلك .

ويتخذ أميناً خاصاً لتوزيع التبن والشعير وله كتاب وعدول يضبطون الحسابات التى ترجع مراقبتها الى أمين القصر .

ويتخذ الملك رئيساً للبريد له خمسون فارساً تحت نظره وينفيذ أوامر الكاتب عن أمر الملك .

ويتخذ قائداً يختاره من أفاضل رجال الجيش يكون رئيس الشرطة السرية وتحت نظره عـدة ضباط يسخرهم عن أمر المـلك لعقل المتمولات وتنفيذ الاوامر الحكومية ورعاية تنفيذ الاحكام الشرعية ، فله أن يوقف أعظم رجل ويسجنه وينفذ عليه سائر الاحكام الشرعية عن أمر الملك .

وللملك حاجب خاص مخلص بيده الطابع وهو الذي يملي الاوامر عند كتابتها ويطبع عليها .

أما خدمة الحاشية فعددهم وافر ولهم قائد خاص واله النظر في استخدامهم وابعادهم وخفض أجورهم واعلائها على حسب ما يظهر له ويحضر سائر الجلسات الرسمية وينظمها وهو بعبارة جـامعة قـائد شرطة الحاشية .

وهناك قائد آخر له النظر في امر القباب ويحمل قباب الملك على البهائم وخيام الجيش على الجمال .

وللملك فرقة من الجند يحملون الاعلام وكلهم يحملونها مطوية ما عدا واحداً منهم فانه يحمل العـلم منشوراً وكلهم رواد يعرفون الطرق ومعابر الاودية ومسالك الغابات وياخذ كل واحد معه على فرسه طبلا من نحاس على هيئة الصحن اعلاه واسع واسفله ضيق واعلاه

مغشى بالجلد ويجعل له من الجهة الاخرى عدلا لثقله ، وفرسان هذه الفرقة من اجود الفرسان واضراها والينها لاتحرن لسماع صوت الطبل الشديد الذي يسمع على مسافة بعيدة حيث تضرب عليه يد قوية متمرنة بعصبة قوية ، وهنالك فرقة الابواق تنفخ فيها وقت اكل الملك وعند التمرينات العسكرية وساعة الحرب .

وللملك رئيس للحفلات والتشريفات لايفارق الملك اذا كان في مجلس حكومته او عند المقابلات ووظيفه تعيين المقاعد وترتيب المناوبة عند الكلام على حسب ما تقتضيه الرتب والشخصيات . . . »

« واذا اراد الملك السفر أعلم رئيسُ تشريفاته اصحاب البريد عن امره ليخبروا افراد العائلة المالكة والقواد واصحاب الحرس وغيرهم من رجال الحكومة فيجتمع الكل في الساحة التي بباب القصر وفي السبل المؤدية اليها ، ثم يخرج الملك من القصر ويبادر اصحاب البريد باعلام فرق الخيالة فيتقدم اولا اصحاب الاعلام ثم اصحاب الطبول ثم قائد الاروى مع اعوانه ودائرته ثم امين التموين مع سائر اتباعه ثم اصحاب الحرس ثم رئيس التشريفات وبعده كتاب الديوان وصاحب المالية ثم قاضي المعسكر وحاكمه ثم الملك بعد ذلك وحوله الوزير وبعض الامراء ويتقدم امام الملك قائد يحمل السيف وآخر يحمل الدرقة وآخر يحمل

القوس وتحيط به عدة خدمة يحمل احدهم الرمح والاخر غطاء السرج والاخر الرسن فاذا نزل الملك وضع الغطاء على السرج ورسن الفرس ، وهناك خادم آخر يحمل حذاء الملك وهذا الحذاء انيق مزخرف يظهر به ايام الحفلات . ثم ياتي بعد الملك قائد الخدمة والاعوان ثم الخصيان ثم حريم الملك ووراء الكل الخيالة الخفاف ثم بعدهم اصحاب الاقواس والبراقيل .

وليس للملك تانق في ملبسه فلا فرق بينه وبين عامة الناس في ذلك ، وربما تانق اصغر خدمته في لباسه اكثر منه ، والشريعة المحمدية تحرم على الملوك لبس التيجان .

واذا اراد الملك أن ينزل ليعسكر ضُرب اولا مضربه ، وهو عبارة عن حمى مربع الشكل على هيئة سور قصر وله شرفات وبعد ما بين زاويتيه خمسون ذراعا وفي كل ركن شبه برج من كتان قائم وسقفه على شكل قبة وعليه تفافيح مذهبة وفي كل جهة باب عليه حراس الخصيان ، وفي داخل هذا الحمى قباب منصوبة والقبة التي بها الملك متسعة مرتفعة السقف تمكنه فيها الحركة بكل سهولة ، وحول الحمى قباب حاشية الملك المقربة ، وتحيط بالكل دائرة من قباب الحرس وهي من جلد على كيفية قباب العرب ، وفي داخل هذه الدائرة قباب

المطبخة والقباب التي تتناول فيها عائلة الملك الطعام وهي قباب واسعة ، وخارج الدائرة قباب اروى الخيول الخفاف التي على نفقة الملك الخاصة ، وعلى بعد منها قباب الاروى العامة بعضها مسقف وبعضها بدون سقف وفيها الخيول مصطفة بكيفية نظامية .

وخارج هذا المعسكر اصحاب البهائم المعدة لحمل الاثقال وجرها ثم حوانيت التجار من باعة لحم وباعة خردة وباعة حوت فيخيم سائر اصحاب الحرف والتجارة الذين يتبعون المعسكر وراء اصحاب البهائم ، ويظهر في وسط ذلك معسكر الملك على هيئة مدينة حيث ترى حواله خيام الحرس قائمة كسور محكم لشدة اتصالها ونظامها فلا يمكن اجتيازها الا من الابواب المفتوحة . . . »

أرى فيما ترجمته كفاية لاظهار نفس الوزان وبيان الفائدة التاريخية والجغرافية المحتوي عليها كتابه ، وأوقف تيار القلم هنا مع أن قيمة الكتاب وفائدته الواضحة تقضيان بترجمته جميعه فليس فيه على ضخامته ما يوضع جانبا ولكن ضيق الوقت لايسمح بذلك ، سيما وقد قصدت من هذا التاليف النقد والتحليل لا ترجمة الكتاب برمته ، وأتمنى أن تسمح لي الاقدار بعد بترجمة الكتاب كله او تقيض له من يقوم بحقه خدمة للانسانية عموما وللوطن العزيز خصوصا .

ويأسف الناظر في الكتاب جد الاسف حيث يشعر بان الترجمة الفرنسية قد اهملت بعض الفصول فتركت ناحية من الابحاث ناقصة، ولا اجد لذلك سببا الا كون المترجم لم يكن على بصيرة من سائر ما كتب المؤلف عنه من العوائد والجزئيات المجهولة بأروبا فكانت تصعب عليه ترجمتها وكان يتركها جانبا او يترجمها بتقريب لا يسلم من الغموض او التحريف في بعض الاحيان ، وله العذر في ذلك اذ فوق طاقته لا يلام مع الشكر له على ما بذله من المجهود في ترجمة ما احسن ترجمته وهو عمل جزيل كبير الاهمية يقصر عنه كل ثناء ، وعلى هذا يكون الكتاب في اصله كان اوسع مما بلغنا ، واتمنى أن يكون اصله العربي لازال في طي المهملات باحدى الخزائن فيطلع علينا يوما من الايام كما طلع غيره من دخائر علماء العرب التي قطع بضياعها ، وتكون فائدته اذ ذاك اهم واجزل والله الموفق .

تعيين مواقع مدن فاس

١) سلا : المدينة المعروفة القائمة الآن على ضفة نهر ابي رقراق اليمنى ونعتها بعض المؤرخين بمرسى فاس ، واصلها انها كانت رباطا للادارسة على ما ذكره ابن حوقل وقد كانت بعد عاصمة لبعض دول المغرب واصل التسمية فنيقية (صلع) ومعناه الحجر (وفي العربية مكان صلع لا ينبت شيئا) وكان اسما لمدينتهم الازلية شالة القائمة آثارها الآن على الضفة اليسرى من الوادي وربما كانت ممتدة الى الضفة اليمنى .

٢) فنزرا : حقق بعض الاثريين انها على ١٥ كلميتر من سلا بينها وبين مكناس وسماها بعضهم بفيض الله ولم يبق لها اثر.

المعمورة : على الضفة اليسرى من نهر سبوا اسسها بنو يفرن في القرن الرابع واتخذها عبد المومن بن علي دار الصناعة واعاد تاسيسها المولى اسماعيل وبنى اسوارها الموجودة الآن وبابها الكبير على يد عامله الريفي وسماها المهدية وفي موقعها كانت المدينة الازلية التي اسسها القرطجنيون على شواطئ المغرب على يد قائدهم حنون وهي اول ما اسس في رحلته البحرية المعروفة التي قام بها منذ خمسة وعشرين قرنا وسماها ثياطريا وهي شهيرة في تاريخ المغرب القديم .

٣) تفلت : كانت مدينة بربرية قديمة جددت الآن في العصر الحاضر

واسمها ماخوذ من الفلفل على نحو ٦٠ كلمتر من سلا في طريق فاس .

٤) مكناس : مكناسة الزيتون المدينة المشهورة من اكبر مدن المغرب واقدمها عاصمة المولى اسماعيل واول من عمرها قبيلة مكناسة الراحلة مع ابن ابي العافية من شرق المغرب وكانت قبلهم هناك مراكز صغيرة متفرقة وبدأ بجمع هذه المراكز في مدينة واحدة يوسف بن تاشفين واتم عمارتها المولى اسماعيل حيث اتخذها عاصمة ملكه .

٥) جماعة الحمام : « على ١٥ ميلا جنوبا من مكناس وعشرة من الاطلس وثلاثين من فاس في طريق تادلة » ولعلها قصبة الحاجب الآن .

٦) زواغة : مدينة كانت بسهل زواغة غرب فاس في السهل المعروف هناك بهذا الاسم وهو اسم قبيلة كانت ثم .

٧) خميس المطغرة : « على ١٥ ميلا غرب » فاس كانت مدينة ادريسية .

٨) بني باسل : مدينة كانت « على ١٨ ميلا غربا من فاس » لعلها على وادي النجاة بين مكناس وفاس .

٩) المقرمدة : على نحو « ٢٠ ميلا شرقا من فاس » كانت مدينة مشهورة بوقائعها التاريخية ذكرها ابن حوقل والادريسي بين فاس وتازا

١٠) عباد او العباد مدينة كانت بموقع المولى احمد البرنوسي على نحو « ٦ اميال شمالا من فاس »

١١) الزاوية : مدينة كان اسسها ابو يعقوب المريني حول قبر ابي يعقوب الاسقر كانت على « ١٤ ميلا جنوبا من فاس » في جبل كندر .

١٢) خولان : حمة خولان « عين حمئة على ٨ ميلا جنوبا من فاس قرب سبو » وهي عين سيدي حرازم الآن (ابن حرزهم) .

١٣) جبل زالغ شمالا من فاس كان كالمدينة الواحده لاتصال عمارته

١٤) جبل زرهون شمال مكناس كان كالمدينة الواحدة لاتصال عمرانه ولا زال كثير العمارة مكسورا بالمداشر المبنية كانها مدن .

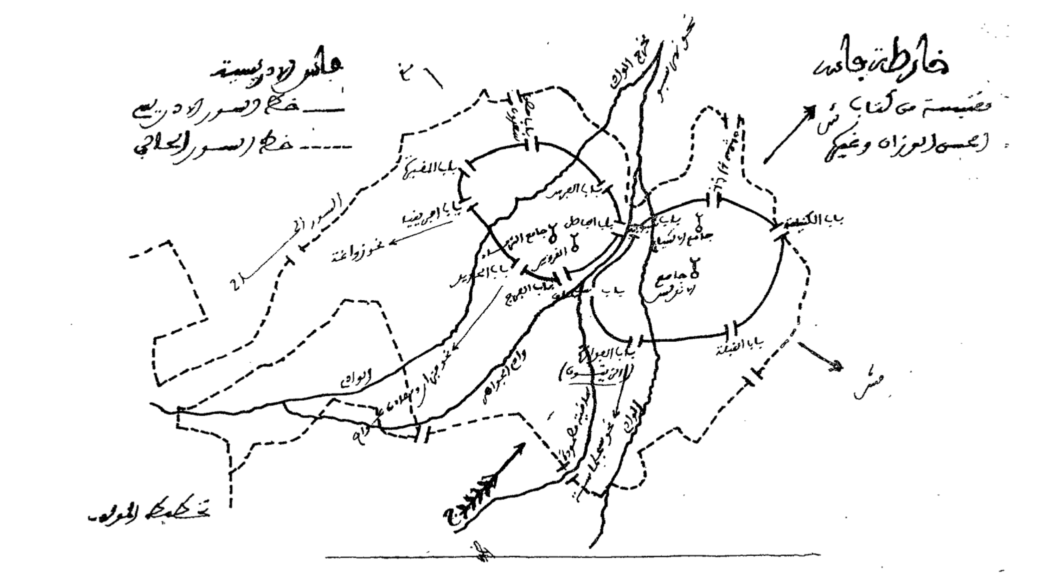
١٥) ولـيلي : اصل هذا الاسم لقبيلة كانت نازلة حول جبل زرهون ثم تسمت بها مدينة ، او اصلها اسم المدينة الازلية فلبليس وهي موقـع الزاوية الادريسية اليوم وهناك عين تسمى الآن عين وليلي .

١٦) قصر فرعون : المدينة الازليـة التي كانت عاصمة المغرب الداخلية ايام الرومان وعند البربر الى مجيء الادارسة ويظن انها كانت مؤسسة قبل مجيء الرومان وهي فلبليس صاحبة الاطلال المعروفة .

١٧) الدار الحمراء : كانت مدينة بين ورذيغة وفاس في سفح جبل زرهون

١٨) مغيلة : بين فاس وزرهون كانت مدينـة هناك وخربت .

١٩) كروان : مدينة كانت تعرف بموضع القبيلة التي تحمل هذا الاسم نفسه في احواز مكناس كانت هذه القبيلة هناك ولا زالت .



خارطة فاس
مقتبسة من كتاب ش
الحسن الوزان وغيره
فاس الإدريسية
خط السور الإدريسي
خط السور الحالي
باب الكنيسة
باب القبلة
جامع الأشياخ
نحو زواغة
وادي الجواهر
تخطيط المؤلف

خارطة فاس في القرن التاسع ه
خط السور على ذلك العصر
خط الزيادة الى الان
غ
شمال
المرج
باب الفتوح
حومة الكنيسة
جامع الاندلس
الكدان
مصمودة
البرزخ
الجرف
الواد
السور
القرويين
باب القناطر
باب السلسلة
عين علو
عين ازليتن
باب الشريعة
السور المبني في القرن 7
باب الحريز
ج
تخطيط المؤلف

جدول الخطأ والصواب

ص	س	خطـأ	صواب
٣	٤	اربارب	ارباب
١٩	٦	لتتـار	التتار
٣١	٤	كتاب. . . مترهبا	كتابا. . . مترهب
٣٢	١٤	النظر ا	النظر
٣٣	١	افرقيا	افريقيا (وقد تكرر هذا الغلط في غير هذا الموضع)
٤١	٩	الموخودة	الموجودة
٤٥	١٠	حيدور	هيدور
٤٧	١١	الز رعة	الفلاحة
٥٠	١٧	التاريخية	والتاريخية
٥٣	١٢	طبيعة	طبيعية
٦٣	٥	بالريارة	بالزيارة
٦٦	٨	الدئرة	الدائرة
»	١٠	ماتي	مائتي
٧٠	١	والسقف ، يظلك	والسقف يظلك ،
٧٣	٩	عل	على
»	١٣	مداخل	مداخيل
٧٦	١٠	»	»
٧٧	٧	مقعطة	مقطعة
٨٠	٤	وتروحهم	وترويحهم
٨١	١٢	المدنية	المدينـة
٩٣	١٦	وينقيذ	وينفذ

